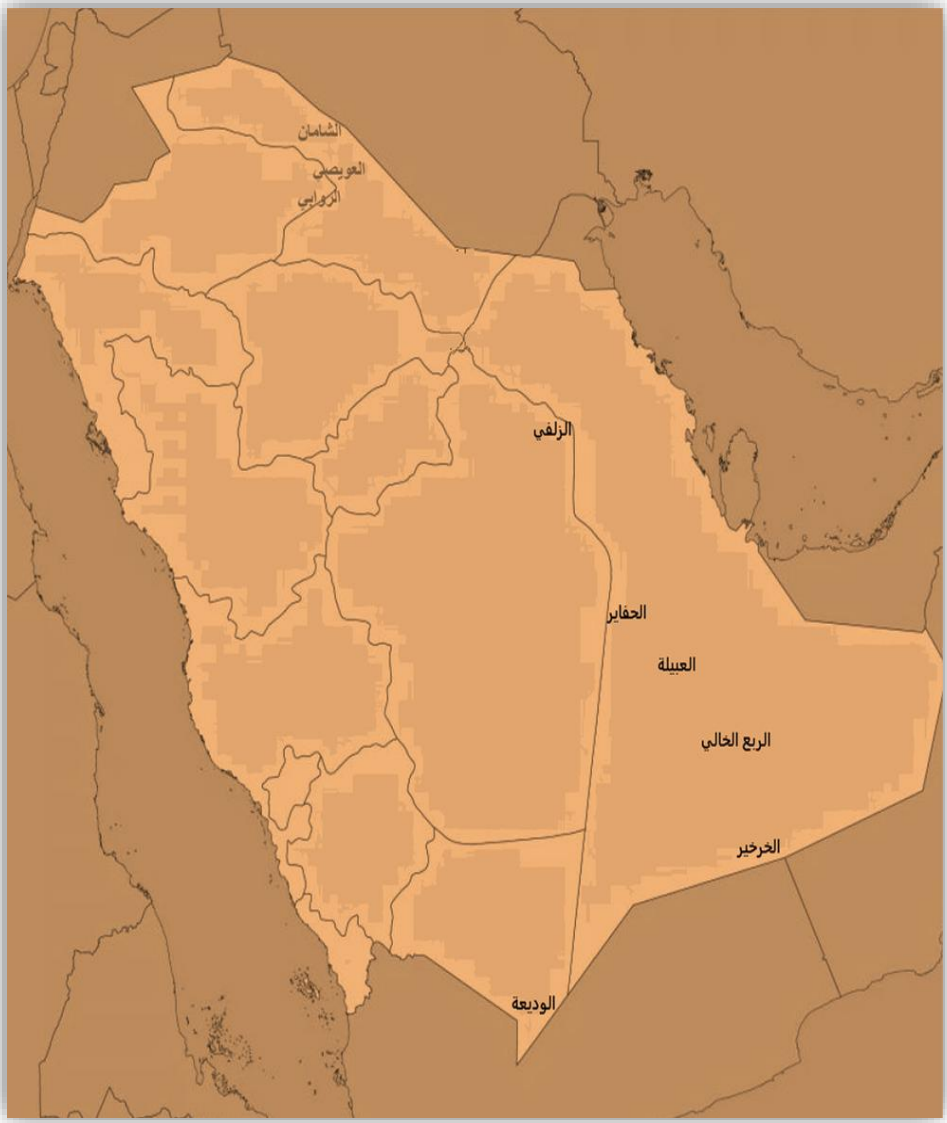
التائهون في الربع الخالي

سلوى حسيبون

في قلب الربع الخالي، حيث لا صوت يعلو سوى همس الريح، تتلاقى الأرواح التائهة بين الرمال الصامتة حيث يختلط العطش بالحنين، والظلام بالنور الخافت هناك، يولد حبٌّ لا يعرف الخوف وينبت أملٌ بين جراح الماضي وحرارة الشمس. رواية تسرد قصة التيه، والبحث، واللقاء حين يصبح القلب هو البوصلة الوحيدة والحبّ هو النور الذي لا يخبو في عتمة الصحراء.

"التائهون في الربع الخالي"

حكاية رحلة عبر الزمن والمكان حيث تتحول الضياعات إلى بداية جديدة.


الشامان
العويصي
الزوراب
الزلفي
الحفاير
العبيلة
الربع الخالي
الخرخير
الوديعة

إهداء

...إلى الذين لم يعودوا كما كانوا بعد الرحلة الأخيرة

هذا التيه قد لا يرجعك،

لكنه سيكشف لك من كنت ومن ستكون

ريح التيه

كانت الشمس تنزلق بهدوء خلف كثبان الرمل، تصبغ السماء بألوان الغروب المتوهّجة، حين خرج الطفلان، سالم وأخوه الأصغر ناصر، من ضواحي الواحة يلعبان، ضحكهما كان ينساب كخرير الجدول في قلب الصحراء، يركضان خلف ظل طائرٍ في السماء، أو يتسابقان على منحدرات الرمل الناعم.

كان سالم في التاسعة من عمره، بعينين سوداويتين لامعتين كقطرات الزيتون، وحسّ مسؤولية مبكر لا يشبه عمره، أما ناصر، فلم يتجاوز السادسة، بشعرٍ أشعث برتقالي اللون وبشغفٍ لا حدود له للحكايات والمغامرات.

لم تكن أمهما جورية تعلم أنهما تسلّلا بعيدًا عن الحقول، بعيدًا عن الأشجار النحيلة التي تحرس طرف الواحة، إلى تخوم الرمل الأصفر، حيث تبدأ المساحات التي لا اسم لها.

الربع الخالي

وفجأة، دون سابق إنذار، هبّت ريح. كانت ريح جافة، غاضبة، تصرخ في الوديان الرملية كروحٍ تائهة. التصقت الرمال بوجهيهما، وتلاشت آثار أقدامهما في لحظة، كأن الأرض رفضت أن تعترف بمرورهما. حاول سالم أن يميز الطريق، أن يتذكر شكل النخلة الأخيرة أو صوت الماء، لكنه لم يرَ سوى ضباب الرمال، ولم يسمع سوى صفير الريح.

-ناصر! تمسك بيدي!

صاح سالم، وقد أطبق بيده الصغيرة على يد أخيه، الذي بدأ جسده يرتجف كعصفورٍ مبتلّ.

الريح كانت أقوى، دفعت الطفلين بعيدًا عن بعضهما، وبدأت الصحراء تبتلعهما ببطء، تسحبهم إلى عمق الربع الخالي، حيث لا شجرة تميل، ولا نجم يهوي.

سقط ناصر على ركبتيه يبكي، بينما سالم يحاول أن يصرخ، أن ينادي، لكن لا مجيب سوى الصمت... صمت الرمال. كان لا يعلم أن الرحلة قد بدأت، **وأن الصحراء لا تعيد من تبتلعهم إلا وقد غيّرتهم للأبد... إن عادوا أصلاً.**

حين هدأت العاصفة، لم يكن أمام سالم إلا سهل ممتد لا نهاية له، لا نخيل ولا واحة. أخوه مرتمي قربه، نائم أو مغشيّ عليه، ركض نحوه يتعثر في الرمل، وجثا على ركبتيه بجانبه. وجه ناصر مغطى بطبقة رقيقة من الرمل، وفمه نصف مفتوح، وقد التصقت حبيبات الصحراء بلسانه وشفتيه.

-ناصر... ناصر!

صرخ سالم، ثم هزّ كتفيه، بشيء من الذعر. كان صدر ناصر يتحرك... لكن ببطء

التقط سالم كفّه الصغيرة، المليئة بالندوب والرمل، وقربها إلى وجهه كأنها كنز.

-أرجوك، استيقظ... لا تتركني هنا وحدي.

صوته كان مكسورًا، كريح خافتة في كهفٍ عميق. أزاح الرمال عن وجهه بأصابعه المرتجفة، وسكب بضع قطرات من ماء القربة المتبقية على شفتيه.

لم يتحرك، لكنه أطلق شهيقًا خافتًا كأن الحياة تتشبث به بخيطٍ هش. سالم، رغم صغره، شعر بأن عليه أن يكون كل شيء: الأخ، الأب، الضوء، والدفء.

تغلغلت في صدره مشاعر لا يعرف أسماءها، شيء بين الخوف والذنب، شيء يشبه الحزن لكنه أعمق، شيء يجعل صدره ضيقًا كقبضة، وعيناه تمتلئان دون أن يبكي.

رفع عينيه نحو السماء، وأعاد همسه المرتجف :
-...يا رب، لا تأخذه...

الشمس قد تهاوت خلف الأفق، والليل بدأ يسدل عباءته الثقيلة، يتقدّم على رؤوس الرمال، ببطءٍ مهيب، كملكٍ عجوز يطأ الأرض على عكّاز الظلام، والبرد يزحف وراءه بلا رحمة.
ارتمى سالم بجانب أخيه، سحب جسده الصغير إلى صدره، كأنّه يحاول أن يجنّبه من البرد، من الخوف، من المجهول. أغمض عينيه، لا عن رغبة في النوم، بل من تعبٍ لم يعرف له اسم. نام هناك، فوق الرمل، بين قلبٍ يرتجف ويدٍ لا تزال ممسكة بكفّ أخيه، **وهو لا يدري إن كان سيفتح عينيه من جديد، أم أن الصحراء قد قررت أن تحتفظ به إلى الأبد.**

صمت النخيل

لم تكن الواحة تعلم أن في ذلك الغروب، حين مالت الشمس على كتف الرمل وسكنت الريح في جذوع النخيل، كانت الحياة في طرفها الآخر تميل نحو الاختفاء.
جورية، كعادتها، جمعت بقايا الغسيل المبلّل، نشرتها قرب الجدار، وراحت تهمس لنفسها بأدعية المساء، ظنت أن الطفلين لا زالا يركضان حول أشجار العوسج، أو يلاحقان يعسوبًا متمردًا عند قناة الماء. كانت تلك اللحظة تحمل سكينة زائفة... كأنّ كل شيء في القرية قد عقد اتفاقًا على الصمت.
مرّت ساعة، ثم أخرى...غابت الأصوات الطفولية التي اعتادت أن تملأ الحقل، لا ضحك، لا صراخ، لا أثر لخطواتٍ خفيفة تُقلب الرمال، نادت الأم بصوتٍ يحمل شيئًا من الشك:

- سالم... ناصر! هيا تعالوا..

ثم بصوتٍ أعلى، فيه ارتباك لم يعترف به بعد: سالم؟
لم يجب أحد... سوى نخلة مائلة، هزّتها نسمة خفيفة، كأنها تميل خجلًا من الحقيقة القادمة.
خرجت الأم من الدار، تسأل الجيران: ما رأيتم سالم؟ ناصر كان معه... كانوا يلعبون قرب البئر. رفعت النساء عيونهن من فوق أواني الطبخ، وتوقف أحد الرجال عن تقليم غصن، بينما هزّ شيخ البلدة رأسه وقال: لا، ما رأيناهم... ممكن ان يكونا رجعا من الجهة الخلفية.
بدأ القلق يتسرّب، مثل ماءٍ يسيل بين الأصابع ولا يُمسك. وفي لحظات، كانت الفوانيس تُشعل، والرجال يتوزعون بين الحقول وحدود الرمال.

قال أحدهم:

الريح شالت كل الأثر... الأرض كأنها ما مشت فيها أرجل. والآخر تمتم: الربع الخالي قريب... يا ربّ سلّم. أما جورية، فجلست على العتبة، تمسك بفردة حذاء صغيرة جاء بها أحدهم.
سالم يلبسها دائمًا، دون رباط، ومليئة بالتراب من كثرة مغامراته. انحنت على وجهها، لا تصرخ، لا تبكي... فقط تنظر نحو اللاشيئ.
في الزاوية الأخرى من القرية، وعلى تخوم النسيان، كان هناك رجل لا يشبه الباقين.
بلال عابد الكردي، البدويّ الذي لا يُرى كثيرًا، ولا يتكلم إلا حين تسكت كل الأصوات.
حين سمع بخبر الطفلين، لم يُعلق، نظر إلى السماء، ثم قال همسًا: ريح الجنوب... لا ترحم صغار الأقدام.
دخل خيمته، أخرج عصاه الطويلة، كيس تمر، وقربة ماء. ربط خنجرًا صدئًا حول خصره، وضع منديلا ابيض مطرز في جيبه، ثم وقف أمام أمه العجوز، التي كانت جالسة في الظل، لا تنظر إليه، لكنها تعرف وجهته. قال بلال وهو يشد اللثام حول وجهه: لن أرجع وحدي... سنرجع نحن الثلاثة.
خرج في ذلك الليل، لا يحمل خريطة، فقط قلبًا يعرف صوت الرمل حين يبكي، ولغة الريح حين تغضب.

بلال عابد الكردي... الرجل الذي يتكلم مع الرمل

لم يكن بلال عابد الكردي شيخًا، لكنه في عيون الصحراء بدا كذلك. شابٌ في الثالثة والعشرين من عمره، بعينين حادتين كحواف الخنجر، لا يرفع صوته، ولا ينظر خلفه مرتين. يسكن في بيتٍ من الطين الجاف عند طرف الواحة، حيث لا تصل الزغاريد ولا صوت النسوة. القرية جاءت بعده. هو وأمه كانوا أول من لامس هذه الأرض، حين كانت مجرد فلاة لا تعرف معنى الظل. هو من حفر البئر الأولى، بيديه، حجرًا بعد حجر. هو من وضع أول خشبة باب، وربط أول حبل للغسيل. حين جاء الناس، ونبتت الواحة من حوله، لم يقترب، ظلّ على الهامش، كأنه لم يأتِ من بطن امرأة، بل من ضلع الرمل ذاته.

لا أحد يعرف أصله، ولا من أين جاء هو وأمه. يقول البعض إنه كردي من الشمال، هارب من حرب قديمة، ويقول آخرون إن أمه لقيطة، حملت به وقررت أن تربيه في الظل... دون اسم، دون أب، دون وطن. لكن الحقيقة الوحيدة هي أنه لا يعرف شيئًا. لم تسرد له أمه شيئًا عن الماضي، فقط قالت له ذات مرة، وهي تطحن القمح بيدين مرتجفتين :
- اسمك بلال، وكفى... ومن يسأل عن أصله، لا يعرف إلى أين يمشي.

كان وجهه مزيجًا من البراءة والتعب. في السوق، لا يُكثر الحديث. وفي الصلاة، لا يقف في الصفوف، يصلي وحده، ثم يرحل. وحين يدخل الصحراء، تتغير ملامحه. يُصبح صوته هادئًا كنسيم الليل، خطواته لا تترك أثرًا، وعيناه تقرأ الرمال كما تقرأ الأم وجه طفلها النائم.
البدو يهابونه، والصبية يقلّدونه، والشيوخ يهمسون عنه في المجالس:
-ذاك الفتى، لو ضاعت السماء... سيهتدي إليها....

كانت أمه كل دنياه. السيدة اسيل امرأة صامتة في الخمسينات من عمرها، تلبس الأسود حتى في الأعياد، تحب الشاي الحلو، وتخاف من الذكريات. كان يخرج في رحلات طويلة بعضها يدوم سنوات ليجلب لها المئونة، الأعشاب، والكتب التي لا تقرأها لكنها تضعها في خزانة عتيقة الطراز مزينة بالورود التي رغم ذبولها لازالت هناك تبعث الطمأنينة في قلبها. كان كل شيء فيها يهمس بالحزن. وحين كان يسألها عن أبيه، ترد دائمًا بنفس العبارة.

«**لم يكن رجلاً، بل غيمة... مرّت دون أن تُمطر** »

حين تمشي الشمس على الجراح

كان الفجر خافتًا، شاحبًا، يشقّ الأفق بخيوط رمادية، لا يحمل دفئًا ولا وعدًا. صوت الريح صار أضعف، لكنها تركت أثرها في كل شيء: في وجه سالم، في حنجرته الجافة، وفي جسد ناصر الذي بدا كظلٍ مرمي على الرمل. فتح سالم عينيه ببطء. نسي للحظة أين هو، ثم تذكّر كل شيء دفعة واحدة. مدّ يده يتحسس جنب أخيه... كان هناك، لكن جسده بارد، أنفاسه خفيفة، كأنه يتنفس من مسافة بعيدة جدًا.

ناصر؟ همس، ثم كرر بصوتٍ أعلى: ناصر! انهض... الشمس قادمة.

لم يجب. فرك وجهه، نزع الرمال عن فمه، فيه طعم غبار وملح وجفاف.

أخذ يضرب على خده برفق، ثم بقوة: ناصر... انهض! ليس وقت اللعب... انهض.

انزلق صوت باكٍ من حلقه، لم يكن بكاءً كاملاً، بل شيء بين الحشرجة والنداء.

لم يعد يعرف إن كان ناصر حيًا، أو نائمًا، أو ذاهبًا.

ثم فجأة، سعل ناصر. شهق شهقة صغيرة، وفتح عينيه نصف فتحة. بصوت خافت كهمس الرمل قال: ماما... عطشان.

ابتسم سالم رغم دموعه، حمل رأس أخيه إلى حجره، وأخرج القارورة الصغيرة. هزّها... فارغة. كُسر قلبه مرتين: مرة حين عرف أنه لا ماء، ومرة حين رأى كيف بلّ ناصر شفتيه بلعابه، ثم ابتلع الهواء.

قال له سالم: لا تخف... سنجد ماءا، وعد... لكن لا تنم، ناصر، لا تنم.

كان يريد أن ينهض، أن يبحث، أن يركض، لكن ساقيه ثقيلتان كأنهما من طين. رفع عينيه للسماء. لم يكن فيها طائر، ولا سحابة، فقط قرص شمس بدأ يتسلّق السماء كالوحش.

كان الجفاف ينهش فمه، والحرّ بدأ يتسرّب من تحت جلده،

لكن حين سمع أنفاس ناصر تتقطع كأنها على وشك الغياب، نهض سالم.
لم يكن يعرف إلى أين... لا أثر، لا نخلة، لا جبل، لا شيء سوى الرمل. لكنه قرر ألا يبقى.
أن يحمل أخاه ويمشي... حتى النهاية.
انحنى على ناصر، شدّه بحذر، رفعه بصعوبة، ثم أنزله على ظهره، كمن يحمل قلبه نفسه
كان خفيفًا... لكن في قلب سالم، بدا ثقيلاً بثقل الحب والخوف والواجب.

ستمسك بي، اليس كذلك؟
همس وهو يربط قميصه حول خصر أخيه ليثبّته. ناصر لم يجب، لكن رأسه سقط بلطف
على كتف سالم، كأنّه يقول: أنا معك.
خطا الخطوة الأولى... ثم الثانية... ثم عشر خطوات، فخمسين.
كلّ خطوة كانت تسحب روحه قليلاً.
كان الرمل يلتفّ حول قدميه كأفعى ناعمة، والشمس كمن يشوي جسده ببطء. مرّت
نصف ساعة، ربما ساعة، لا يعرف. لكنه رأى في الأفق شيئًا... لا واضحًا، لا قريبًا، ربما ظلّ
نخلة؟ أو مجرد سراب؟
لكنه قرر أن يمشي نحوه، أن يجعل قدمه تسبق يأسه، وأن يحمل أخاه كمن يحمل الوعد
الأخير. كانت قدماه تغوصان في الرمل كأن الأرض تأبى أن تسمح له بالمضي،
لكن سالم، بوجهه المتغضّن بالغبار، وقلبه المرتعش، لم يتوقف. مرّت الشمس إلى منتصف
السماء، وجسده الصغير يعرق حتى جفّ، عيناه تؤلمان، وظهره يحمل ما لم يُخلق لحمله.
ثم سمعها... أنّة صغيرة، متقطعة، خرجت من فم ناصر، توقف.
أنزله برفق على الرمل، جثا بجانبه، وضع يده على جبينه... كان حارًا كالجمر، وعيناه تهتزان
تحت الجفنين كأنهما تطاردان كوابيس لا تُروى.
ناصر... ناصر، أنا معك

لكن ناصر كان يهمس بكلمات لا تُفهم: ماء... ماما... ظل... حرّ. تنهّد سالم بضعف، ثم خلع قميصه الممزّق، صنع منه خيمة صغيرة تقي رأس أخيه من الشمس. جلس بقربه، يحرّك الهواء بكفه، ينفخ على جبينه كأن نَفَسه قد يُطفئ هذه النار التي تشتعل داخله.

ثم فجأة، سكت ناصر، عيناه مفتوحتان نصف فتحة، ينظر دون أن يرى. في تلك اللحظة، شعر سالم أن الصحراء أصبحت أضيق من قلبه، كأنها تطبق عليه كما يطبق الحزن على صدر يتيم.

بكى دون صوت، مسح دموعه بذراعه المغبرة، ثم تشبث بكفّ أخيه، وتمتم:

لن اتركك تموت، ناصر... سمعت؟ لن اتركك.

في مكانٍ بعيد قليلًا، كان بلال الكردي واقفًا، ينظر إلى الأفق، ثم ينحني فجأة، يلمس الرمل، كأن شيئًا فيه صاح فجأة.

قال بصوتٍ خافت: صار الرمل دافئًا أكثر من اللازم... أحدهم مريض.

ثم رفع رأسه، وبدأ يسير بخطى أسرع، كأن الصحراء همست له بالاتجاه. مرّ النهار ببطء كأن الزمن نفسه يتألم. الشمس كانت تقترب من زوالها كعدو لا يرحم، تسكب لهبها على ظهر سالم الحائر، وعلى جسد ناصر المرتجف.

الصحراء من حولهما كانت صحراء لا تشبه إلا نفسها، بحرٌ من رمال ذهبية تمتد بلا حدود، تكسر الأفق بضوءٍ لاذع. كثبانٌ مترامية الأذرع تشبه أمواجًا صامتة تجمّدت في لحظة غضب.

الهواء الساخن يحمل رائحة التراب الجافة والوحشة، والريح تعصف، تعزف لحنًا قديمًا من الهجير والضياع، تُحرّك الرمال فتلتفّ كالأفاعي حول قدمي سالم، وتبعث في نفسه شعورًا بالخواء، كأن الأرض كلها تبتلعه. الظل الوحيد كان خيطًا رفيعًا تحت جسد ناصر، والسماء فوقهما بديعة، ولكنها بلا رحمة، زرقة شديدة تذوب مع كل دقيقة تتقدم، تتحول إلى لون

برتقالي يمزق القلب.
بدأ ناصر يتحرك، عيناه تتقلبان بين غلق وفتح، ثم بدأ ينطق بأصوات غريبة، همسات تخرج من بين شفتيه الجافتين:
-...سالم... الريح... ... تعال... تعال
صوت ناصر كان هزيلاً، لكنه يحمل شيئًا من الوهم، وكأن الصحراء تتكلم إليه.
توقف سالم ليراقب أخاه، يحاول أن يركّز، لكن عينيه تعبتا، ووجهه غطاه العرق والغبار
ناصر، لا تخف... أنا معك. همس وهو يحاول أن يمسح العرق عن جبين ناصر.
ولكن ناصر لم يكن يستجيب بوضوح، بل بدأ يهمس بأسماء وأماكن لا يعرفها سالم، كلمات عن ماء يركض، ونار لا تحترق، وأشخاص بوجوه من رماد.

في لحظة من الهدوء، أغلق ناصر عينيه بقوة، ثم فتحها فجأة وهو يصرخ:
-لا! لا ترحلوا... لا تتركوني.
ارتجف سالم، لم يفهم من يتحدث عنه أخوه، لكنه أمسكت يداه بقوة، كأنها قبضة أمل في بحر من التيه. وقفت الشمس خلف الكثبان، تلقي بظلها الطويل والقاتم على وجه الصحراء كانت ليلة أخرى تبدأ، وصوت هلوسات ناصر يرافق صوت الريح، وكأن الصحراء نفسها تبكي لحاله.

...استيقظ في قلب سالم صوت بعيد
صوت رجل كان يحميه، يرتدي ثوب السفر، يحمل حقيبة، ويعود بعد غياب طويل
كان ذلك حين عاد أبوه من السفر،
ثلاثة أشهر غابت فيها الضحكات، ونام الليل بدون قصة.
عاد بابتسامة مُتعبة، عطره يحمل رائحة بعيدة، ويداه تحملان هدية صغيرة: كرة خشبية

صنعت بأيدي الحرفيين في المدينة. ركض سالم نحوه، كأن الغياب قد امتصه بالكامل، ووجد فيه كل الأمان احتضنه الأب، وقال: رجعت يا صغيري...

كانت تلك الأشهر ثمينة، احتفلوا بها، لعبوا، ضحكوا في الواحة تحت ظل النخيل، لكن شيئًا ما تغيّر بصمت، وجاء في همسات الليل، في كتمة الأنفاس، في ارتفاع حرارة الأب التي لم تخف. بدأ المرض ينخر في جسده، حمى صامتة، تقضي عليه ببطء، مثل الرمال التي تبتلع الذكريات.

رأى سالم والده يحتضر، يداه ترتعشان، عيونه تغمض ببطء، والدموع تسيل من أمه بلا صوت. لم يكن يفهم حينها معنى الموت، لكن قلبه الصغير كان يعرف أن ذلك الفراق أبدي نظر إلى ناصر، أخاه الصغير، يتنفس بصعوبة، وشعر بذلك الخوف الجامح يتسلل إلى داخله، خوفٌ من أن يكون هذا المصير هو المصير، خوفٌ من أن يكون الفراق الذي لا يُحتمل قادمًا.

همس بصوت مبحوح وهو يحتضن أخاه :...لا... لن اخسرك مثل ما خسرت أبي.

ارواح تائهة

في عَزّ الليل القاتم، حين كان القمر يختبئ خلف سُحبٍ متثاقلة، والنجوم تبدو بعيدة، باردة، وكأنها تراقب بصمت، سمع سالم صوتًا ناعمًا لكنه واضح، كصوت أقدام جمالٍ تمشي على الرمال، صوت يتسلّل من بعيد، يقطع سكون الصحراء كطعنةٍ غير متوقعة.

رفع رأسه ببطء، يراقب الأفق بعيون متوترة، وفي المسافة، ظهر ضوء خافت يتراقص، ومعه ثلاثة رجال ملثّمون، يركبون جمالًا تجرّ ظلالهم الطويلة على الكثبان.
كانوا صامتين، خطواتهم متناسقة، وكأنهم أشباح تلتقط أنفاس الليل. الريح زادت من هول المشهد، تلاعبت بأقمشتهم السوداء، وتداعب وجوههم المخفية.

التفت سالم نحو أخيه ناصر، يرتجف لكنه لا يملك خيارًا سوى الاستعداد. همس لنفسه: من هؤلاء؟ ... هل هم نجدة أم خطر؟

صوت الصحراء الخافت كان يتلاشى تحت صرخات سالم المبحوحة:
-"أنقذونا... أنقذونا"
صرخ بأعلى ما في صدره، وهو يحمل أخاه الثقيل على ظهره.
ارتجف الهواء البارد، حمل صدى صوته عبر الكثبان، لكنها كانت صرخات لا تعرف الرحمة، ولا تنتظر الإجابة. اقتربت القافلة ببطء، ركابها الثلاثة، كالظلال التي لا تُرى بوضوح، وجوههم ملثّمة لكن عيونهم تلمع في ضوء القمر الضعيف. وقفوا على بُعد أمتار قليلة، وتوقّف صوت أقدام الجمال. سالت رياح الصحراء تحت أقدامهم، حاملةً معها رهبة غريبة.

رفع أحد الرجال يده، وأشار بصمت إلى سالم، ثم اقترب بحذر. صوته كان منخفضًا، كهمسة تهزّ الأرض:
-"من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟"

ردّ سالم بصوت ممزوج بالخوف واليأس:
-...أنا... أنا فقط أحمل أخي... تهنا في الصحراء
...هو مريض... نحتاج ماءً... مساعدة.

نظر الرجل الثاني إلى الطفلين، ثم إلى الرمال التي تحيط بهم بلا نهاية.

قال الأول بحزم:
-"الليل هنا ليس صديقًا للهاربين... لكن لن نترككم تائهين"
ثم أعطى سالم جرعة ماء من قارورة صغيرة.
لم تكن كثيرة، لكنها كانت كالسحر. بدأ سالم يشرب، شعر بالبرد ينساب في حلقه الجاف، وبينما كان يشرب، تسلّل شعور غريب، بين الراحة والشك،
هل هم ملائكة؟ أم أشباح؟
بعد لحظة صمت ثقيل، اقترب الرجل الأول ببطء من سالم، ونظر إلى وجه الطفل المثقل بالقلق والخوف، ثم قال بصوت هادئ لكن حازم:
-أنتم في خطر كبير، والصحراء ليست مكانًا للتيه.
نحن مسافرون عائدون إلى مساكننا، لكن الطريق طويل، وقد نأخذكم معنا فربما تجدون في قافلتنا ما ينقذكم.

كان سالم ينظر إلى ناصر، الذي بدأ يغمض عينيه من التعب،
ثم رفع رأسه، وقال بصوت مرتجف:
-"نعم... نريد النجاة... نريد العودة"

ابتسم الرجل الأول برقة، وأشار إلى زملائه:
-"حسناً، فلنبدأ إذن"

بهدوء، رفع الرجلُ الأول ناصر برفقٍ، ووضعه فوق جملٍ كبير، شدّ عليه بحبلٍ ليثبّت مكانه بأمان. كانت عيون ناصر تُغمض تدريجيًا، يلهث جفناه من التعب، لكن وجوده هناك أعطى أملًا خافتًا، كأنّ النجاة اقتربت بخطوة. ركب سالم بجانب الرجل الثاني على جملٍ آخر، قلبه يخفق بقوة، كأنّه يُدرك أن هذه الرحلة قد تكون الفاصلة بين الموت والحياة.

انطلقت القافلة، خطوات الجِمال تغوص في الرمل الناعم، تُصدر أصواتًا هادئة تعانق صمت الليل. النجوم تومض فوقهم في سماء صافية، والقمر يتابعهم بوجهه البارد. الهواء ليّن، لكن الصحراء لم تكن يومًا مكانًا للراحة. الريحُ حملت معها رائحة الأعشاب الجافة، وذاك الشعور الغامض بالخطر المحتمل. جلس سالم بصمت، يحاول أن يوازن بين ثقل قلبه واهتزاز خطوات الجمل، كان يُراقب الأفق، برودة الليل تتسلّل إلى جسده، لكن قلبه كان محمومًا، يغلي بالقلق على ناصر، يريد أن يستيقظ، أن يتكلم، أن يقول أي شيء يدل على الحياة.

وحيدًا بين ظلال الجِمال والنجوم، كانت هذه الرحلة بمثابة اختبارٍ آخر، بين الخوف والأمل، وبين الحياة والمجهول.

تأمّل وجه ناصر من بعيد، ممددًا فوق الجمل الذي يسبقه، ثم مال برأسه نحو الرجل وسأله بصوتٍ خافت:

-من أنتم؟

لم ينظر الرجل إليه مباشرة، بل تابع تأمل الطريق وقال بصوت أجشّ:

-...الذي امامنا اسمه ماجد الزعيمي

كبيرنا، يعرف الأرض كما يعرف راحة يده، لا يُخطئ الاتجاه. والثالث، ذاك الذي في الخلف أيوب الماسيفي، لا يتكلم كثيرًا... ولا ينام. عيونه ترى ما لا تراه أنت.

بلع سالم ريقه، ثم تمتم:

-وأنت؟

ابتسم الرجل ابتسامة شبه خفية وقال:

-...اسمي منعم الميساوي

راحلٌ منذ زمن، وعائد بعد غياب

شعر سالم بارتباكٍ من غموض الإجابة، فسأله بتردد:

-"إلى أين أنتم ذاهبون؟"

رد منعم، وعيناه تتبعان ظل الجمال تحت القمر:

راجعون من الوديعة، بعد أن سلّمنا ما كنا نحمله ونتجه الآن إلى العويصي، في الشمال.

سأل منعم فجأة:

-"وأنتم؟ من أين جئتم؟"

تردّد سالم، فتح فمه، ثم قال ببطء:
-"من... من الواحة"

رفع منعم حاجبه قليلاً وقال بلطف:
-أيّ واحة؟
الصحراء مليئة بالواحات... هل لها اسم؟

هنا شعر سالم بشيء غريب في صدره، كأنّ السؤال حرّك فراغًا لم يكن يراه. عقد جبينه، وعبث بيده بثوبه المتسخ، وقال بارتباك:
-...لا أعرف... نحن فقط نقول: الواحة
...الجميع يسمونها هكذا
ما سمعت أحدًا يذكر اسمًا لها.

ساد صمت ثقيل، ثم تنهد منعم وقال بصوتٍ أقرب للهمس:
-...أحيانًا نعيش في أماكن نعرفها بأرواحنا، لا بأسمائها
لكن الصحراء لا تحب المجهولين،
عليك أن تعرف من أين أتيت، كي تعرف إلى أين تذهب.

كلماته وقعت في قلب الطفل كما يقع الغبار على صفحة ماء، ساكنة... لكنها تثير دوامات لا تُرى. تشبث سالم بلجام الجمل، ونظر إلى ناصر، ممدًا بثقل الحب والحمى، وهمس:
نعود... حتى لو ما عرفنا اسم المكان... سنعود.

العودة المرة

مرّ يومان طويلان على بلال الكردي في قلب الصحراء. نهاران ساخنان كالنار، وليلتان لا يسمع فيهما سوى عواء الريح وصرير العتمة. كان يمشي بخطى حذرة، يتبع أثرًا ضعيفًا، خطوطًا بالكاد تراها العين، لكنه يعلم أن الرمال تمحو الذاكرة بسرعة، وأثر الطفلين لم يعد سوى قصة في التراب.

قربة الماء كانت أول من خذله، ثم كيس التمر اليابس، وبعده صمت الجمل، الذي بات يتنفس بثقل وينظر نحو الشرق كأنه يطلب العودة. وقف عند تل رملي، نظر إلى الأفق الواسع... فارغ. لا نار في الأفق، لا ظل، لا صوت سوى صوت قلبه يقول:

-إن عدت حيًا... تستطيع أن تحاول من جديد.

ضرب الرمل بعصاه، ثم جلس، أخرج خرقة مبللة بالعرق ومسح بها جبينه. كانت الشمس قاسية، لكن ما كان أقسى منها هو أن يعود بدونهم. ثم وقف بصعوبة، ربط عمامته بإحكام، وأدار وجه جمله نحو الشرق، نحو الواحة. خطاه كانت ثقيلة، لكنها لم تكن استسلامًا، بل وعدًا مؤجلًا... أن يعود حين تقوى اليد، وحين تسمح الأرض بأن تقول الحقيقة.

حين بدأت ملامح الواحة تظهر من بعيد، كانت خيوط الغروب تُنزل ألوانها البرتقالية على سعف النخيل، لكن عيون بلال كانت أثقل من أن ترى الجمال. عاد ببطء، يخطو كمن يحمل الصحراء على كتفيه. جمله متعب، صوته انقطع من النداء، وقلبه انكسر من الصمت.

حين عبر حدود القرية، رأى الناس مجتمعين في الساحة، الرجال يجلسون في ظل الجدران، والنساء يتهامسن عند أبواب البيوت، والأطفال... لم يعودوا يلعبون. رأى جورية جالسة على حجر قديم عند مدخل البيت، ثيابها مغبرة، عيناها مفتوحتان لكن لا تركيز فيهما، كأن الدموع جفّت، وكأنها لم تعد تنتظر بقدر ما تتحمل الانتظار.

اقترب بلال بصمت، لا كلام يصلح، لا عزاء يشفي. وقف أمامها، وانحنى قليلًا، ثم قال بصوت خافت كأن الرمل يتكلم:
-سامحيني يا خالة... بحثت، وما تركت شبر، لكن الصحراء... كانت أوسع منّي، وأقسى منّي.

لم ترد. نظرت إليه للحظة، بعينٍ فيها سؤال لم يخرج، ثم خفضت رأسها، كأن الجواب وصل قبل أن يُقال. تقدّم شيخ القرية، ووضع يده على كتف بلال، وقال بصوت حزين:
-ما قصّرت يا بلال، النية وحدها ما تكفي أحيانًا.

انسحب بلال من الساحة، وذهب إلى بيته الطيني حيث تنتظره أمه العجوز، لم يقل شيئًا، فقط جلس على الأرض، وأنزل عصاه إلى جانبه، كأنها فقدت معناها.

كانت الشمس في كبد السماء تميل إلى الغروب، لكن وهجها لم يهدأ بعد، بل بقي يجلد الرمال بحرارته، حتى بدت الأرض وكأنها تتنفس نارًا من تحت.

بين حرارة الحمى وبرودة البئر

سارت القافلة ببطء، العرق يلمع على جلود الجمال، والغبار يعلو مع كل خطوة، والهواء ثقيل، كأن الزمن نفسه يتعثر. ناصر كان ما يزال على ظهر جمل ماجد الزعيمي، وجهه محمر من الحمى، شفتاه جافتان، وعيناه نصف مفتوحتين دون وعي. بين لحظة وأخرى، يهمهم بكلمات غير مفهومة، كأنه يحاور شيئًا لا يُرى. سالم يراقبه بشحوب، كان يجلس امام منعم، يحاول حبس دموعه، لكنه لم يعد يطيق الصمت. قال بصوت مرتجف: سيد منعم... هو أسوأ الآن... وجهه يبدو حار جدًا... أرجوك، هل نرتاح قليلًا؟

التفت منعم ببطء، نظر إلى عينيه، ثم إلى ماجد الذي يسبقهم، ناداه: ماجد! الصغير يحتضر من الحرارة... نحتاج ظلًا أو راحة قصيرة. توقف ماجد، نزل عن جمله بخفة، ثم سار خطوات إلى تلة صغيرة على جانب المسير، كان هناك ظل ضئيل خلف نتوء صخري. قال بهدوء: نرتاح هنا ساعة... لكن بعدها لا نتوقف حتى مغيب الشمس. أنزلوا ناصر بحذر، بسطوا ثوبًا فوق الرمل، ومدّوه عليه. جلس سالم إلى جواره، يمسح جبينه بقماشة بلّلها بالقليل من الماء.

جلس الرجال الثلاثة في دوائر منفصلة، لم يتحدثوا كثيرًا، كانوا يراقبون الأفق، وكأنهم ينتظرون شيئًا. أما سالم، فكان قلبه يطرق صدره بقوة، وفي رأسه صوت واحد لا يتوقف: لو مات... لن أعود إلى أمي أبدًا... لن أتحمل عينيها.

الصمت استقر في المكان، الجمال رابضة في ظل الصخور، وسالم لا يزال يمسح جبين ناصر بأنامل مرتجفة، بينما منعم يحدق في الأفق بصبرٍ بدويٍّ صامت.

ماجد، نهض فجأة. نظر نحو الغرب، عينه تحدق في شيء بعيد، ضاق جفناه، وتحرك خطوات إلى الأمام، كمن يطارد ظلًا لا يراه سواه. تمتم منعم دون أن يلتفت: "ماجد؟" لم يجب، بل تابع المسير حتى وصل إلى حافة منخفض رملي صغير، وهناك... توقف. لوّح بيده بصوت خافت: تعالوا... انظروا.

اقترب منعم، ثم سالم بعده بخوف وتردد، حتى وقفوا إلى جوار ماجد، وأعينهم تركزت على ما رآه: بئرٌ قديم، نصفه مدفون بالرمل، فوهته محاطة بحجارة سوداء، وبجانبه شجرتان ميتتان، عاريتان من أي ورقة، فروعها كالأصابع اليابسة، تشير إلى السماء كأنها تستغيث.

قال ماجد ببطء، صوته ممتزج بالريبة: "لم يكن هذا هنا في طريقنا قبل أشهر... أقسم أنه لم يكن." قال منعم وهو يركّز نظره: "ربما دفنته الرمال وأزاحت الغبار الآن... أو ربما..." سكت، ثم تمتم: **البعض يقول إن الصحراء تُخفي آبارها عمن لا تعرفهم... وتُظهرها فقط حين تشاء.**

سالم لم يفهم كل شيء، لكن قلبه قفز، وقال بسرعة: "هل فيه ماء؟!" اقترب ماجد من البئر، أخرج حبلًا قديمًا، ربط عليه حجرًا صغيرًا، وأنزله ببطء... لحظات طويلة مرّت، ثم: "طَشّ!" صوت الماء. ارتفعت عيونهم في دهشة وارتياح خفي، لكن ماجد ظلّ صامتًا، وقال بنبرة هادئة لكنها غامضة: فيه ماء... لكنني لا أرتاح لهذا المكان.

اقترب الرجال الثلاثة من البئر، ومع أول دلو صاعد، كان الماء باردًا رغم حرارة العصر، صافيًا بطريقة لا تُصدّق، كأنّه لم يُلمس منذ قرون. جثا ماجد الزعبي بجانب ناصر، ثم أشار إلى جذع الشجرة الميتة القريبة: "ضعوه هنا... الظل وإن كان قليلاً، يكفي لجسدٍ محموم." حملوه معًا، بثقل وحرص، ثم وضعوه برفق على جذع الشجرة الجاف، كأن الجذع العاري احتضن جسد الطفل المشتعل بحرارة الحمى.

غمس منعم الميساوي قطعة من القماش في الدلو، وبدأ يغسل وجه ناصر، ثم انحنى أيوب الماسيفي، وأخذ يغسل يديه وقدميه، وماجد أفرغ قليلًا من الماء على صدره.
وفي تلك اللحظة — لحظة ملامسة الماء لجسد الطفل المتعب، وملامسة الرحمة لوجع الصحراء — ظهر شيء غريب. الضوء تغيّر. الوهج الذهبي للعصر انعكس بطريقة غير مألوفة، والرمال أصبحت أكثر صفاءً، وكأنها تنصت.
نظر سالم في ذهول... كانت الرمال التي غطّت وجوه الرجال الثلاثة قد بدأت تتلاشى. حبات التراب الدقيقة التي لطالما التصقت بوجوههم، سقطت شيئًا فشيئًا، فبانت وجوههم... لأول مرة. كانت وجوههم مهيبة... صادقة... وأشد نورًا مما توقّع. لم تكن مجرد وجوه رجالٍ بدو، بل ملامح فيها هيبة الحكماء، وتعب العارفين. كأنهم كانوا يرتدون أقنعة الرمال حتى يروا إن كان من أمامهم أهلًا للنجاة.
وقف سالم مدهوشًا، لم يعرف أهو سحر؟ أم أثر الحمى؟ أم أن الصحراء بدأت تكشف شيئًا مما تخفي؟ أما ناصر، فبدأ جسده يهدأ شيئًا فشيئًا، أنفاسه خفّت، ووجهه استعاد لونه قليلًا.

قال ماجد، وهو ينظر إلى عيني سالم لأول مرة مباشرة: الماء لا يروي الجسد فقط... الماء يكشف.

ماجد الزعبي ظهر أولهم، الرجل الذي يسير دائمًا في المقدّمة، كأن الرمال تفترش له الطريق قبل أن تطأه قدماه. كان وجهه نحيفًا، صارمًا، تلوّنه الشمس لا الرحمة، جبينه عالٍ كجبل صامت، وعيناه الخضراوتان لا تعرفان الارتباك. من بين وجنته وعنقه يمر ظلٌ من الزمن، كأن السنوات حفرت فيه أثرًا لا يراه إلا من ضاع في الفقد. ماجد، اسمه يُهمس باحترام. لا يكثر من الكلام، لكن إن تكلم، انصتت الصحراء ونام الرمل في مكانه.

ثم نظر سالم إلى الرجل الجالس دائمًا بجانبه، ذاك الذي صوته رخيم، وحديثه يشبه القصص التي تهمس بها الجدّات آخر الليل. منعم، وجهه مستدير لكن فيه انكسار أنيق، كأن الحزن مرّ به يومًا فطلب منه كوب قهوة وجلس، ثم لم يغادر. عيناه عسليتان تميلان إلى الذهب في ضوء الشمس، لكن فيهما تعبٌ يشبه من يسير وهو يحمل في صدره منفى لا عنوان له. كان يبتسم أحيانًا، **لكن تلك الابتسامة كانت كمن يواسي نفسه قبل أن يواسي الآخرين.**

أما الثالث... ذاك الذي لا يتحدث، ولا ينظر طويلًا، ولا ينام أبدًا — أيوب الماسيفي سالم لم يتجرأ أن يحدق في وجهه كثيرًا، فذلك الوجه فيه ندبة طويلة، تبدأ من طرف عينه حتى تغيب تحت ثوبه، كأنها سيفٌ منسيّ مرّ فوقه ثم استراح. بشرته داكنة، أقرب إلى سواد الرمل حين يحترق، ولحيته كثيفة كصمت الصحراء بعد العاصفة. لكن ما شدّ سالم لم يكن مظهره، بل عينيه الرماديتين... لا غضب فيهما، ولا طمأنينة، كأنهما نافذتان على شيء قديم، بعيد، لا يُروى.

ثلاثتهم جلسوا في صمت، والشمس تُخفي آخر خيوطها خلف كثيب بعيد، وسالم شعر لوهلة أنه ليس بين رجال... بل بين وجوهٍ خرجت من قلب الرمال، تحمل كلٌ منها قصةً لم تبدأ بعد. جلس على الرمل قرب أخيه، جسده مرهق، وثوبه مُثقَل بغبار السفر، لكن قلبه هو الأثقل... كأن الخوف نفسه قد اتخذ له مكانًا فيه، واستقر. مدّ يده الصغيرة المرتجفة، ووضعها بلطف على صدر ناصر، كأنه يفتّش بين الضلوع عن نبضٍ ضاع، أو نفسٍ تأخّر. أنفاس ناصر كانت خفيفة، تأتي وتذهب كنسمة شحيحة... تتردد، تتباطأ، كأنها تفكر في البقاء أو الرحيل. عينا سالم غاصتا في وجه أخيه، في ذلك الاصفرار الغريب، وتلك الجفنتان نصفُ مغلقتين، **وكأن ناصر ليس نائمًا، بل واقف على حدود عالمين، لا يدري في أيّهما يستيقظ.**

حني سالم رأسه، شعره المبلول بالعرق والماء لامس جبهة ناصر، وهمس بصوتٍ خافت ...كالدعاء: لا تتركني، ناصر... أنا لا أعرف وحدي... ولا أستطيع الرجوع بدونك.

شعر فجأة أن الليل أقرب من أي وقت، أن السماء تكتم نجومها، وأن حتى الصمت خائف. وفي قلبه، تسلّل ذاك الإحساس الثقيل، ذلك الذي لا اسم له، لكن يعرفه كل من لمس وجه من يُحتمل أن يغيب. الخوف من الوداع. لم يبكِ، بل اكتفى بأن يحبس أنفاسه، يراقب أنفاس أخيه، كأن النجاة أصبحت مسألة عدد... عدد المرات التي يتنفس فيها ناصر، قبل أن يختار الحياة أو يتركها.

حلّ الليل، وألقى على الرمل عباءته الثقيلة، كأنّه جاء ليستر التعب، لا ليُزيله. بردٌ خفيف تسلّل بين أطراف الثياب، بعد نهارٍ كانت فيه الشمس كالسوط، تحرق الأجساد والأنفاس. في صمتٍ متعب، بدأ الرجال الثلاثة بجمع القرب والقوارير، يُحكمون شدّها، ويُحصون ما تبقى من الماء، كأنهم يعدّون الأمل... بالقطرات.

قال منعم الميساوي وهو يغلق آخر قربة: **الماء كالعمر... لا تدري متى ينتهي، لكنك تشربه بحذر، وتدعو أن يكفي.**

نظر إليه ماجد الزعيم، ثم أشار بصوته الهادئ: "نرحل الآن... فالمسير في الليل أهون من عيون الشمس، والطريق أمامنا طويل كقصة لم تُروَ بعد. أيقظوا الجمال، نفضت عن نفسها غبار السكون، ونهضت بتثاقل، كأنها تعرف أن الرحلة لم تكتمل بعد. ناصر لا يزال نائمًا فوق فراشه الصغير المصنوع من الأثواب، أنفاسه متعبة، لكن ثابتة، وُضع بعناية على ظهر جمل أيوب الماسيفي، الذي لم ينبس بكلمة، بل شدّ الحبل جيدًا، ثم نظر إلى سالم الذي صعد خلف ماجد هذه المرة، وقلبه لا يزال مشدودًا إلى الخلف، إلى كل مكان مضى... إلى أمٍ تنتظر، إلى بيتٍ لم يعد بيتًا دون أخيه.

الظل الأخير للواحة

بدأ القافلة تسير.

خطى الجمال كانت كأغنية حزينة تضرب الرمل، والنجوم في السماء تفتح أعينها، تراقب القافلة التي تسير في بطن الليل، كأنها تسير في حكاية لم يكتب أحد نهايتها بعد.

تقلّب ماجد بين السطور الصامتة للصحراء، وأغمض عينيه للحظة، ليحلق في ذكريات لم تمحها الرمال بعد. تلك الرحلات التي كان يخوضها صغيرًا مع أمه العجوز، كانت أكثر من مجرد بحث عن الماء والمؤونة، كانت رحلة نجاةٍ ووئامٍ مع عالم لا يرحم. كانا يغادران الواحة عند أولى خيوط الفجر، والنسيم لا يزال يحمل رائحة الرمل البارد، يمسكان بأيديهما المتجعدة، ويتسللان بين الكثبان كطيفين خفيفين. كانت أمه، رغم ضعف جسدها، تملك قلبًا من صلابة الجبال، تنظر إلى الأفق بعيون تشعّ إصرارًا، كأنها تقرأ في خطوط الشمس أسرار البقاء.

في كل رحلة، كان ماجد يحمل على كتفيه كيس المؤونة، وجلد الماء الثمين، الذي لا يغيب عنه خوف فقدانه. بينما كانت أمه تسير بخطى متثاقلة، تحكي له قصصًا عن الأرض التي تمشي تحت أقدامهم، عن الريح التي تغسل الألم، وعن السماء التي لا تنام. الكلمات تسكن في أذنيه كأنها بلسم، تخفف ثقل الصحراء الذي يضغط على صدره الصغير. لكن الرحلة لم تكن سهلة، في بعض الأحيان كان العطش يلتهمهم، وحينها، كانت أمه توقفه تقول بصوت هادئ لكنه صارم:

"ماجد... الماء حياة، والرحمة في أن نحترمها"

كانت لحظات الألم تلك، حين يعانقان صخورًا مشتعلة، لكنها أيضًا كانا يجدان ملاذًا في الظلال القليلة بين الصخور، حيث تهمس الريح بأغاني قديمة، ويشعران بأنها ليسا وحيدين في ذلك اللا مكان.

عاد ماجد من ذكرياته، نظر إلى النجوم التي بدأت تنطفئ، وصار صوته أكثر حدة حين قال: تعلمت من أمي ألا أستسلم، وأن الصحراء مهما خانتك، فإنها أمان لمن يعرف كيف يسمعها.

حلّ الصباح، ببطء، كأن الشمس كانت تمشي على رؤوس أصابعها، تُزيح عن السماء غبار الليل، وتوقظ الرمل من برده الطويل.
كانت القافلة قد هدأت لحظةً، والإرهاق متدلٍ من أعين الرجال، وسالم يوشك أن يغفو فوق صدر ماجد، حين همس أيوب الماسيفي دون أن يلتفت:
"انظروا هناك... بين الكثبان"

رفعوا رؤوسهم، وهناك، في نقطة بعيدة تشبه السراب، كان اللون يتغيّر ليس ذهبيًا كالعادة، ولا رمليًا بلا نهاية، بل بقعة من خُضرة خافتة، كأن الصحراء نزفت حياةً في مكانٍ ما. تقدّموا بحذر، والخطى ثقيلة من العطش والقلق، حتى اقتربوا... فإذا بها واحة صغيرة، نائمة وسط الصمت. مُسوّرة بنخلتين واقفتين كحارسين من زمن غابر، يتوسّطها بئران حجريان، حولها آثار دلو قديم، وحبال ممترئة، وجدران منخفضة لبيوت من طين، بعضها مهدّم، وبعضها لا يزال قائمًا، ينبعث من شقوقه ظلّ باقٍ. لا أحد في المكان، لكن الحياة موجودة، خفية وصامتة. ورائحة الماء تعبق في الهواء، كأن الأرض هنا تتذكر من مرّ بها قبلهم.

قال منعم الميساوي بصوتٍ مشوب بالحذر:
"كأننا وجدنا بيتًا نسيه الزمن... أو بيتًا لا يظهر إلا لمن تاه بما فيه الكفاية"

انزلوا ناصر بهدوء، كان لا يزال نائمًا، محمومًا، لكن ملامحه خفّت قسوتها حين هبّت عليه نسمة من جهة النخل.
سالم، وقف مذهولًا، ينظر إلى البئر، إلى البيوت، إلى النخل، وكأن قلبه سأل:
"هل نحن في حلم؟ أم أن الله سمع دعائي، وأجاب بالصمت والماء؟"

توزّع الرجال الثلاثة في الواحة الصامتة، كأنهم جزءٌ منها... يعودون إلى مكان يعرفونه دون أن يذكروا متى. دخل ماجد الزعيمي إلى بيت طيني متماسك، بابه مائل، ونوافذه منفتحة على الغياب، لكن الهواء فيه أقل اختناقًا، وفي الزاوية حصير بالٍ، وكسرات من فخار مكسور، وأثر موقد ما زال يحمل رمادًا ناعما، كأن الحياة غادرت لتوّها.
في الجهة الأخرى، كان أيوب الماسيفي قد جلس على ركبتيه، وبدأ بيديه القويتين يزيل الرمال المتراكمة على البئر الأولى، أنفاسه ثقيلة، كأنه يُخرج قلبه من التراب.
أما منعم الميساوي، فانحنى عند البئر الثانية، وراح يفكّ الحبل القديم، يتفقد خشب البكرة، يلمسها برفق، كما لو أنه يوقظ صديقًا نائمًا. وفي طرف الظل... جلس سالم على الرمل، وقد أسند رأس أخيه على فخذيه، يمسح على جبينه بإصبعه المرتجف، وينظر إلى وجهه الذي شحب كأوراق الخريف. اقترب برفق، همس باسمه مرارًا:
"ناصر... ناصر... انهض، لقد وصلنا"

لكنه لم يكن يتوقع المعجزة
تحرك الجفن، فُتحت العينان، ببطء، كمن يشق الغبار عن نافذة عمرها مئة عام ثم ارتجف الجسد الصغير، وخرج نفسٌ ضعيف، كأنّه أول تنفّس بعد الغرق.

قال ناصر بصوتٍ خافت مبحوح:
"سالم.. اين نحن ؟"
عانقه سالم بقوة، كأن روحه نفسها قد رجعت، كأن الليل الذي داخله مات، قد انقشع مرة أخرى. وفي تلك اللحظة، ارتفع صوت الماء من البئر الأولى، دلو يسحب، قطرات تتقاطر، وأيادي تبحث عن حياة.

قال ماجد من داخل البيت بصوت مرتفع:
هنا طعام قديم... محفوظ بالملح، وصندوق خشب فيه قماش يابس هذا المكان لم يُهجر... بل انتظر.
في تلك الواحة المنسية، جلس الرجال الثلاثة والطفلان حول البئر، وقد اغتسلوا بما قدروا، كأنهم غسلوا عنهم أثر الضياع. غمرت الماءُ وجوههم، أزاحت عنهم غبار الرحلة، وأحيت في أجسادهم شيئًا من الاتزان، ذلك الاتزان الذي لا يمنحه النوم، بل النجاة.
أخرج ماجد من الكيس جلد تمر قديم، وقطعًا صغيرة من لحم مملّح وجاف، وتشاركوا الصمت واللقيمات، كأنهم لا يريدون أن يُفسدوا ما بينهم وبين الصحراء... لحظة السلام هذه.
ناصر أكل بصمت، عينيه نصف مفتوحتين، لا يعرف أهو في حلم أم في أرض أخرى، أما سالم، فكان لا يزال ممسكًا بيده، وكأن الفقد لا يُمحى باللقاء.

هدأت الشمس في كبد السماء، واختلط الضوء بالظل بين النخلتين اليابستين، حين ساد صمت غريب... صمتٌ ثقيل، يشبه التمهيد لشيء لا يُقال.
ثم... من بين بيت مهدّم نصفه رماد ونصفه جدار متكسر، خرج رجل عجوز.
لم يكن ظهورًا مفاجئًا، بل كأنه كان هناك طوال الوقت... يراقبهم من خلف الحطام، ينتظر أن يطمئن قلبه قبل أن يكشف نفسه.

كان قصيرًا، نحيلًا، كأن الريح صقلته عامًا بعد عام،
رداؤه ممزق لكنه نظيف، ووجهه أسمر شديد السمرة ومجعّد، يشبه جلد الأرض اليابسة بعد المطر الأول. كان يمشي ببطء، بيد واحدة يمسك عصاه، وبالأخرى يسند خاصرته، لكنه لم يكن ضعيفًا في عينيه ضوءٌ يشبه من رأى كثيرًا ولم يتكلم قط. توقف قربهم، نظر إلى الماء، ثم إلى وجوههم، ثم قال بصوتٍ كأنه خرج من أعماق الأرض:
"أنتم... لستم أول من يصل"

تقدّم ماجد الزعيمي بخطى ثابتة نحو العجوز، ونظراته الحادة تلتقط في وجهه ملامح الزمن والتحدي. وقف أمامه، ونظر في عينيه قائلاً:
"يا شيخ، من تكون؟ وما الذي تفعل وحيدًا في هذه الواحة النائية؟"

ابتسم العجوز ابتسامة باهتة، وصوته كان هادئًا لكنه مثقل بالأسرار:
"أنا من بقي... من تبقّى بعد أن رحل الجميع"

تمتم ماجد مستفسرًا:
"كيف؟ من رحل؟"

تنهد العجوز بعمق، وكأنه يحمل على كتفيه ثقل قرون، وقال:
كانت هنا واحة صغيرة، مسكني أنا وأختي وابنها، كنا نعيش بين ظل النخل وبئر الماء، لكن القوافل التي بدأت تأتي، لم تجلب لنا السلام، بل جاءت محمولة برياح الحرب والصراع.
أغمض عينيه للحظة، ثم استمر بصوت يئن تحت وطأة الذكرى
حروب القوافل دمرت كل شيء، هدمت البيوت، وحطمت الأرواح، وأجبرت العديد من أهل الواحة على الاستسلام، هربوا أو ماتوا، وتركوني وحيدًا، كالتائه بين رمال الربع الخالي،

وسط أحداث لم أكن أملك لها قرارًا.
ثم أضاف بحزن عميق:
أختي وابنها هربوا مع قافلة عائدة إلى الجنوب، ولم أسمع عنهم أي خبر منذ ذلك الوقت.
أمسك بعصاه بقوة، وكأنه يستمد من الأرض صبره الذي لا ينفد، وأضاف
هذه الواحة... هي بيتي، ومقامي الأخير، أعيش هنا بين صدى الذكريات وألم الحاضر،
أحرس ما تبقى، وأنتظر، ربما أنسى، أو أن يعود أحدهم.

صمت قليلاً، ثم نظر لماجد بسؤال في عينيه:
"وأنت، يا شاب...عن ماذا تبحث هنا؟"

قال ماجد وصوته مليء بالحزن: لم آتِ لأبحث عن حرب أو تاريخ... توقفت فقط للراحة، ولأجد مؤونة لأم مريضة لا تطيق هذا السفر الطويل. فجأة، انقطع الصمت بثقلٍ مؤلم حين اشتدّ سعال ناصر، صوتٌ خشن، متقطع، يخرج من صدره الضعيف، استدار الجميع نحو الطفل، والقلق ارتسم على وجوههم.

اقترب سالم مسرعًا، ماسكًا كتف أخيه بلطف، يحاول تهدئته، يغمض عينيه ويهمس:
"اصرِف يا ناصر، استنشق... لا تستسلم"

لكن السعال لم يخف، بل بدا وكأنه يزداد قوة، يملأ الهواء بالخشونة والوجع، نظر العجوز إليه بتركيز، حفيف صامت في عينيه، كأنه رأى في ذلك السعال أكثر من مجرد مرض، رأى علامات يعرفها جيدًا. قال بصوتٍ هادئ لكنه حازم:
"هذا ليس سعالًا عادياً... الصحراء تُعلّمنا أن لكل ألم قصة، ولكل داء دواء"

ثم توجه العجوز نحو البيت المهدم، خطواته بطيئة لكنها واثقة، تشقّ الرمال تحت قدميه كما لو كانت تُبشر بعودة أمل. داخل البيت، بين الركام والحطام، كان لديه صندوق صغير من خشب قديم، يحتوي على أعشاب مجففة، وجذور نادرة جمعها من الصحراء. فتح الصندوق بيد مرتعشة، انتقى منها بعناية أعشابًا ذات رائحة خفيفة، قلبها ينبض بالحياة رغم العزلة الطويلة. عاد مسرعًا إلى سالم والرجال، وهو يحمل بين يديه زجاجة صغيرة مملوءة بماء الأعشاب، وقال:

"هذا ما عندي... قد لا يشفي كل شيء، لكنه يخفف الألم، ويمنح القوة"

سكب القليل منها في فم ناصر، وهمس له:

"اشرب، يا صغيري... الصحراء تراقبك"

جلس الجميع حول الطفل، يرقبون بقلوب متأملة، يريدون أن يروا في عينيه بارقة أمل، تضيء ظلام التيه. عندما اشتد سواد الليل، وساد الصمت كغطاءٍ ثقيلٍ على الواحة، استقرّ كلّ منهم في مكانه، تبادلوا نظرات خافتة مليئة بالأمل والرهبة، ثم تركوا جفونهم ترتاح تحت حراسة النجوم البعيدة.

في ذلك الظلام، كانت الأرواح تُجاهد من أجل البقاء، لكن القلوب ظلت تتوق للضياء، وتنشد الفجر القادم بين أحضان الرمال.

خطى بلال الكردي في رمال الصمت

استيقظ بلال مع أول خيوط الفجر، حين بدأ النور يتسلل برفق بين شقوق الخيمة الصغيرة التي كان ينام فيها. تنفس بعمق، ملأ رئتيه هواءً بارداً يحمل عبق الرمال المبكرة، ثم فتح عينيه ببطء، يستقبل صباح الواحة بهدوء لا يشبه زحام العالم. سمع خرير ماء بعيد، ربما من البئر التي حفرها بنفسه، ورؤية الأشجار تحرك أغصانها بخفة مع نسيم الصحراء اللطيف، شعر بثقل يوم جديد ينتظره، لكن كان هناك سلام غريب يملأ صدره.

خرج من الخيمة، والليل لا يزال ينسحب من الأفق، بدأ في ترتيب أدواته بعناية، اختار حقيبته الجلدية القديمة، ملأ قربة الماء بحذر، حتى لا يفقد نقطة واحدة من هذا الكنز الثمين. تفقد السكين الحاد الذي يحمله، وغذاءه البسيط من تمر وأعشاب جافة، أعد حبالًا متينة، وقبعة قماشية تحمي وجهه من حرارة الشمس، والمنديل الابيض المطرز، هدية اول فتاة أحبها، وضعه في جيبه كذكرى وقوة. أخذ معه بعض الأعشاب التي جمعها، وتفقد آثار الأقدام حول الواحة، يحاول أن يقرأ ما تتركه الرمال من إشارات، كأنه يتحدث مع الصحراء نفسها.

وقف لحظة، نظر نحو كثبان الرمل اللامتناهية، تنفس عميقًا، ورفع يديه بالدعاء: اللهم اجعلني سبب رجوع الطفلين إلى امهم سالمين. لم يكن يعلم ما الذي سيجده هناك، لكن عزيمته كانت أقوى من الرياح، وأمله أكبر من كل كثبان الرمل.

بدأ رحلته بخطوات ثابتة نحو كثبان الرمل الذهبية، تحت سماء صافية يوشّحها نور الفجر الخافت.

كانت الرمال تتغير مع كل نسمة، تتشكل بأشكال غريبة كأنها تحاول إخفاء أسرارها، لكن بلال كان يعرف كيف يقرأ هذه العلامات، كيف يميز أثر قدم أو غصن مكسور، كيف يسمع همسات الصحراء التي لا يسمعها الآخرون.

مرّ بجانب كثبان عالية، تنهد بقوة أمامها، ثم واصل المسير، مع كل خطوة كان يسترجع ذكريات من أيام أفضل، حين كانت الواحة مليئة بالحياة والفرح.

ساعاتٌ من المشي أحيانًا وركوب الجمل أحيانًا، الشمس ترتفع ببطء، والحرارة تتصاعد، لكن بلال لم يتوقف، كان يعرف أن الوقت ثمين، وأن الطفلين في مكان ما يحتاجان إليه.

في امتداد اللا نهاية

مع تلاشي الظلام وخفوت نسيم الليل، بدأت عيون ناصر تفتح ببطء، ينظر حوله بعينين صافيتين تشعان حياةً جديدة. أطلق ابتسامة خفيفة رغم التعب الذي ما زال يكسو وجهه. جلس سالم بجانبه، يراقبه بحذر، بدأ يشعر بارتياح لم يشعر به منذ أيام. لم يعد السعال يزعج ناصر، ولا الحمى تثقل جسده. نهض بقوة، وأخذ نفسًا عميقًا، كأن طاقة جديدة تسري في عروقه، أمسك بيد سالم وقال بحماس: "أنا بخير، سالم! أشعر أنني قوي مجددًا." ابتسم سالم، ومع تلك الكلمات، بدا الأفق أكثر إشراقًا، والصحراء التي كانت تبتلعهم بالأمس، تحولت اليوم إلى مسرح لأمل جديد.

بدأ ماجد بحركة هادئة وحازمة، جمع أغراض القافلة بكل دقة، يختار ما يلزمهم من ماء وطعام، ويرتب الجمال استعدادًا للمسير. توجه نحو سالم وناصر، ونظر إليهما بعينين تعكسان المسؤولية، وقال بصوت هادئ: علينا أن نتحرك.

قبل أن يغادروا، شكروا العجوز على ضيافته وكرمه، وأثنوا على صدقه وحكمته التي منحهم إياها في تلك الواحة المنسية. قال العجوز بحزن: إذا سمعتم عن أختي، اسيل أم عابد، فأرسلوا لها خبرًا أو قولوا لها إن أخاها ما زال حيًا ينتظرها، لا ينسى ولا يمل من الانتظار. تركوا المكان وهم يحملون تلك الكلمات في قلوبهم، أملًا يشق طريقهم عبر رمال التيه، وصدقًا يعانق صمت الصحراء.

بعد خمسة أيام من السير المثقل بالرمال الحارقة وحرارة الشمس التي لا ترحم، وصلت القافلة إلى قرية العبيلة، التي بدت كواحة صغيرة من الحياة في قلب الصحراء القاحلة. كانت البيوت الطينية تتلاصق بجدرانها المتهالكة، تطل نوافذها الصغيرة على أزقة ضيقة ترسم متاهات هادئة. تنفّست القافلة الهواء الذي يحمل رائحة الأرض الدافئة، ومع كل خطوة، كان

صوت الأقدام على الحصى يختلط بصدى أصوات الناس.
على طرف القرية، قرب البئر القديم، تجمّع عدد من النساء والأطفال، ينظرون إلى القافلة بعيون تحمل الفضول والقلق، أما الرجال فكانوا منهمكين في أعمالهم، يحفرون في الأرض أو يرممون أسطح المنازل المتداعية. وقف ماجد أمام القافلة، يراقب المكان بعينين ثاقبتين، يرى بين الناس أملًا مدفونًا، وشوقًا للحياة رغم صعوبة الظروف.
اقترب سالم وأخذ نفسًا عميقًا، رائحة الخبز الطازج وبعض الأعشاب البرية تعبق في الجو، كانت هذه القرية، رغم بساطتها، رمزًا للحياة التي ما زالت تكافح رغم كل شيء.
بدأ الرجال يجهزون الجمال للراحة، أما سالم وناصر فجلسا قرب البئر، ينظران إلى المياه الصافية التي تنعكس فيها صورتهما، وكأنها تعدهما ببداية جديدة وسط رمال الماضي.

في الجهة الأخرى من الصحراء، كان بلال الكردي لا يزال يشقّ طريقه، لكن هذه المرة، لم يرجع إلى الواحة كما فعل سابقًا. لم يحتمل أن يعود فارغ اليدين مرتين، لم يحتمل نظرة أمه، ولا دموع المرأة التي فقدت طفليها. قرر أن يترك خلفه كل تردد، أن يصبح جزءًا من هذا التيه، لا مراقبًا له، فما عاد يبحث عن آثار عابرة... بل عن نبض، عن حياة، عن فرصة أخيرة ليردّ قلبًا مكسورًا إلى صدره. عثر على قطعة قماش صغيرة، ممزقة عند حافة صخرة، انحنى، أمسكها، وبقلبه المتدرب همس: هذه ليست من عبث... طفل مر من هنا. تابع سيره، ينادي الصحراء بعينيه، يقرأ اتجاه الريح كما يقرأ الشعراء قصائدهم، ويصلي أن تقوده خطواته، لا إلى النهاية... بل إلى البداية.
كان سالم جالسًا قرب ناصر، يراقب الناس في القرية وهم يرمقونه بنظراتٍ سريعة، مزيج من الفضول والحذر، أما ناصر، فكان يبتسم للطيور الصغيرة التي تحوم حول البئر، كأنه نسي التعب، ونفض عنه الغبار القديم. في تلك اللحظة، اقترب منهم ماجد، بخطوات واثقة، عيناه تتنقلان بين الوجوه والبيوت الطينية، كمن يعود إلى مكان يعرفه جيدًا، كمن يحمل ذاكرة

قديمة لأرضٍ جرفته عنها السنون. قال ماجد وهو يحدّق في بيتٍ صغير على الجانب الأيسر من الزقاق: هذا المكان... لم يتغير كثيرًا. ثم التفت نحو سالم، وأكمل بصوتٍ خافت: كنت آتي هنا مع أمي، قبل سنوات طويلة، كنا نعبر الصحراء من الجنوب إلى الشمال، ونتوقف في العبيلة لثلاثة أيام، نملأ القرب، نبيع بعض البضائع، ونرحل.

مرّت أمامهم امرأة عجوز، ما إن رآها ماجد حتى ناداها باسمها: "خالة رُقيّة؟
توقفت المرأة، حدّقت في وجهه، ثم اقتربت ببطء، تمسح عينيها بكمّها، وقالت: يا الله... ماجد؟ ابن جميلة؟ كنت طفلًا حين رأيتك آخر مرة.
ابتسم ماجد، شدّ على يدها، وقال: كبرتِ وأنا كبرتُ... لكن المكان كما هو.
ضحكت رقية بحنين: والماء كما هو... والقلوب كذلك.

بدأت الأخبار تنتشر في الزقاق: ماجد الزعبي عاد! رجل القوافل الذي عبر الرمال مرارًا. بدأ الرجال يظهرون على الأبواب، يتبادلون النظرات والهمسات، والأطفال يركضون في الطرقات الصغيرة، كأن شيئًا استيقظ في العبيلة. أما سالم، فكان ينظر إلى ماجد بانبهار صامت، كأن من أنقذه ليس فقط رجلاً يعرف الرمال، بل رجلاً يعرف كيف يعود إلى جذوره، حتى في صحراء تتيه التائه. اقترب أحد الصبية من ماجد وهو يلهث: الشيخ محمد البرغوتي... سمع أنك هنا، ويطلب رؤيتك عند شجرة السدر.

توقفت الكلمات في حلق ماجد لحظة، ذلك الاسم... لم يسمعه منذ سنين.

محمد البرغوتي، الرجل الذي كان يدير القرية بكلمة، الذي حفظ خريطة الرمال في ذاكرته، وكان صديق والدته، يحرسها ويحميها كابنته في أيام الجفاف.

طيف العسل

تبع ماجد الصبي عبر الأزقة الضيقة حتى وصل إلى ساحة صغيرة تتوسطها شجرة سدر قديمة، جذعها غليظ ومنحني، وفروعها تنتشر كذراعي حكيم. كان الشيخ محمد جالسًا على حصير، يرتدي جلبابًا أبيض وعقالًا ممترنًا، وجهه مجعد كجلد نخلة عجوز، لكن في عينيه وهج لا ينطفئ. رفع رأسه حين رأى ماجد، ثم وقف ببطء وفتح ذراعيه قائلاً:

"...ماجد الزعيمي"

نطق اسمه كما لو أنه يعيد شيئًا دفنته الريح. اقترب ماجد، ركع على ركبتيه وقبّل يده، وقال:

يا شيخ محمد... ما ظننت أني سأراك ثانية"

جلسا تحت ظل الشجرة، وبدأت الكلمات تنساب كنسيم بين الأغصان. قال الشيخ وهو يرمق الطفلين من بعيد:

-سمعت أنك جئت من الوديعة... ولم تأتِ وحدك.

أومأ ماجد:

-وجدناهما تائهين في الصحراء، أحدهما كان يحترق بالحمى... والقدر ساقنا إليهم.

أغمض الشيخ عينيه ثم قال:

-الصحراء لا ترسل أرواحًا عبثًا، ربما هؤلاء الصغار جاءوا ليعيدوا فتح أبواب منسية، أو يوقظوا قصصًا لم تنتهِ بعد.

صمت قليلاً، ثم أضاف:

-سنبقيهم في أمان... إلى أن يصلوا لأهلهم.

نظر ماجد إلى الشيخ باحترام عميق، وشعر للحظة أن هذه الواحة، رغم صمتها، ما تزال تحتفظ برجال من ذهب.

قبيلة العبيلة لم تكن يومًا كثيرة العدد، لكنها كانت عميقة الجذور، مثل نخلة في قلب العطش، تشرب من الأعماق وتصمد في وجه الريح. بيوتها طينية، مشققة الجدران، بها ببئرين قديمين، حُفرا بعرق الأجداد وسقيتا بدموع الأمهات، كأنهما عيون الأرض التي ترفض أن تغلقها مهما طال الجفاف. أزقتها ضيقة، لكن الأرواح فيها واسعة، الرجال غلاظ الأكُفّ، نحيلو الأجساد، تحمل وجوههم لون الرمل وملوحة العرق، وفي عيونهم ظل القصص القديمة التي لا تُروى إلا على نار المساء وابريق قهوة.

النساء في العبيلة مثل ظل النخلة، هادئات، صابرات، يحفظن أسرار البيوت، ويخبزن الذاكرة مع الخبز، ويغنين للغائبين كما لو أن الصوت خيط يشدهم إلى الديار. أما الأطفال، فهم أبناء الريح، يلعبون بين الحجارة والأبواب الخشبية، يركضون حفاة. عُرفت العبيلة بحيادها في الحروب القبلية، لا تهاجم، ولا تهادن، بل تبقى ثابتة، كأنها قوس صمت بين ناريْن. من يدخلها لا يسأل عن اسمه، لكن يُسقى من مائها، ويُؤتمن على خبزها.

يحكمهم الشيخ محمد البرغوتي، رجل تجاوز السبعين، لكنه لا يزال يعرف كل حجر في الزقاق، وكل قصة دفنها الرمل، وفي صوته وقار من قرأ كتاب الرمل صفحة صفحة، ولم ينسَ سطرًا. قبيلة العبيلة هي من بقي رغم الزلازل، ومن لا يحتاج للعدد كي يُحترم، ومن لا ينسى الضائعين، بل يترك الباب مفتوحًا... والماء على عتبة البئر، علّ الغائب يعود.

كانت ذاكرة محمد البرغوتي مثل صندوق قديم منقوش بالصبر، يفتحه كلما لامس قلبه طيف من أحب. تذكر أولاده الثلاثة، كل واحد فيهم كان له ظل خاص في حياته: الأكبر كان فارس القبيلة، لا يُرى إلا على ظهر فرسه، والأوسط رجل الكلام والتدبير، لا يفوّت مشورة إلا ووزنها بالعقل، أما الأصغر فكان ضوء الفجر، خفيف الروح، لكنه رحل قبل

أوانه، وما زال صوته يرنّ في صدره كلما سمع ضحكة طفل. وبناته الأربع كنّ زهر الواحة، كل واحدة تحمل من أمها لالة خديجة شيئًا من الطيبة والحكمة، لكن قلبه كان يلين عند حفيدته الصغيرة سلوى... أو كما كان يسميها دائمًا العسل. سلوى لم تكن تشبه أحدًا، كانت تلهو بثوبه، تختبئ خلف عباءته، تجلس في حضنه وتقول:

-با، متى ستعلّمني كيف تهمس للصحراء؟

فيضرب بيده على صدره ويقول:

-حين تصيرين من الرمل مثلي، لا من الطين.

لالة خديجة، شريكة العمر، التي لم تُرزق القبيلة بمثلها، فما تزال واقفة، ما شاء الله، كجذع نخلة تصمد في وجه كل ريح. وجهها لا يزال يحمل دفء الأم الأولى، وصوتها حين تنادي في الفجر:

-يا ناس العبيلة، قوموا... فالرحمة لا تنتظر النائمين.

في بيتهم تُخبز الحياة كل صباح، وتُوزّع الطمأنينة كما يُوزّع الخبز، وكل من يدخل إليهم لا يخرج كما دخل. الشيخ محمد البرغوتي لا يُحكم القرية بسلطة، بل بذكرى، وحكمة، وحضور يجعل الرمل يستكين حين يمر. لكن فجأة، كأن أحدهم يسحب خيط الذكرى من رأسه:

-وأين العسل، يا شيخ؟

رفع محمد البرغوتي رأسه ببطء، وصوت ماجد ما زال يتردد في أذنه. نظره ثابت عليه، يتساءل:

-سلوى... هل ما زالت تجري في الأزقة؟

أغمض الشيخ عينيه لحظة، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة فيها ألف عام من الحنين، قال بهدوء:

-هي هنا... لكنها كبرت. صارت تكتب كثيرًا، تتكلم أقل... تجلس تحت هذه الشجرة كثيرًا، لكنها لم تعد تركض.

نظر ماجد إلى الأرض للحظة، كأنه يتحسس أثر أقدامها القديمة، أملًا أن يراها أو حتى يحييها من بعيد، فطفولتها مضت بجواره. بينما ماجد استرسل في الحديث عن مغامراته مع الشيخ البرغوتي، كانا سالم وناصر قد تحولا من طفلين تائهين بين كثبان الرمل إلى روحين بدأت تجد ملاذها في الحياة الجديدة. رغم وصولهم إلى واحة العبيلة بساعات قليلة، ناصر، الذي كان يرتجف من الحمى ويكاد يغرق في ظلال التعب، نهض فجأة بحيوية، صار يركض بين الأزقة الضيقة كطائر صغير تحرر من قفصه، يلاحق الفراشات ويرحب بالأطفال الذين يتجمعون حوله بشغف. أما سالم، فقد وجد في الواحة واحة لنفسه، في شجرة العوسج العتيقة التي تحرس القرية، في نسمات الهواء التي تحمل رائحة الأرض المبللة، حتى في نظرات أهل القبيلة الذين صاروا أصدقاء محتملين. وبدأ يحلم بمستقبل بعيد عن التيه والخوف.

توالت الايام تباعا وفي كل مساء، بدا سالم يألف الجلوس عند البئر، ينظر إلى وجه أخيه الصغير وفي انعكاس الماء تتراءى له امه تطلّ من خلف ملامحه، بعينيها الواسعتين وصبرها الطويل، كأن البئر نافذة بين عالمين عالم غادره الأحبة، وعالم لا يزال يحاول التمسك بظلالهم.

وداعٌ تحت شجرة السدر

بعد أسبوعين من السكينة التي لم تكن سوى هدنة قصيرة بين أزمات الرحلة، استيقظت القافلة في صباحٍ باكرٍ. كانت الصحراء فيه تتنفس بعمق، كأنها تعلم أن وداعًا قادم.
عند شجرة السدر، حيث ظلّ الشيخ محمد البرغوتي يجلس بهدوء، تجمّع أفراد القافلة. كان يتأمل الوجوه التي تغيرت وأصبحت مألوفة، وفي عينيه حزنٌ مختلط بفخرٍ صامت. ماجد، وهو يجهز جماله، تقدم نحو الشيخ، وصوته مشحون بالعزم حين قال:
-يا شيخ محمد، حان وقت الرحيل. لن نترك سالم وناصر خلفنا، ولا أنفاسهم تحت رمال التيه، لكن الواحة كانت بيتًا لنا... شكراً لكل لحظة هنا.
ابتسم الشيخ محمد، وقال بهدوء يحمل حكمة السنين:
-لقد كنتُم هنا كما يحلُّ المطر في صحراء قاحلة لكن الرحيل جزء من الحياة، والحياة هي رحلة لا تنتهي اذهبوا بحفظ الله، ودعواتنا معكم.

وفجأة، خرجت من بين البيوت المهجورة سلوى، حفيدة الشيخ، ترتدي عباءتها البيضاء. كانت نظراتها تشع بريقًا من الألم والفخر. اقتربت من سالم، وضعت يدها الصغيرة على كتفه، وقالت بصوتٍ حنون:
لا تنسَ أن الرمال تحكي قصتك، وأن العسل لا يذوب أبداً.

نظر إلى عينيها، وقال:
لن أنسى... ولن أنساكم

كان ماجد يراقب المشهد بصمت، وعلى غير عادته شعر بثقلٍ غريب في صدره طوال الأسبوعين الماضيين في العبيلة، لم يرَ العسل، ولا لمح ظلّها يمرّ في الزقاق.

وهذه اللحظة، كانت المرة الأولى التي يراها فيها منذ سنين وربما، في أعماقه، كان يعلم أنها قد تكون الأخيرة. لم يقل شيئًا، لكنه خفف يده على عنق جمله، وأدار وجهه نحو الأفق، كأن الصحراء وحدها تستطيع أن تفهم هذا الصمت العالق بين البدايات والنهايات. ثم ركبوا جمالهم، وبدأوا الرحيل.

الرياح الصحراوية كانت تحمل أصداء الوداع، وألوان الغروب لوّنت السماء بأحلام جديدة العبيلة خلفهم، لكنها بقيت محفورة في القلب،

...كما تُحفَر آثار الأقدام في الطين لا في الرمل

لا تمحى، ولا تُنسى.

تشققات في الرمل... وفي القلوب

بعد أسبوعين من الهدوء الموارب، الهدوء الذي لا يشبه السلام، بل يشبه الهدنة ما بين عاصفتين، استيقظت القافلة على نفسٍ ثقيل، وكأن الصحراء نفسها كانت تعرف أن شيئًا ما ينكسر في الأفق. الشمس لم تكن فقط حارقة هذا الصباح... بل كانت حادة، تلسع الوجوه وتطرد الظلال إلى أعمق الحفر. الريح كانت تهمس، لكنها لم تكن ناعمة كأيام الواحة؛ بل بدت كأنها تحاول إبعادهم، ترفض عودتهم إلى التيه.

ماجد كان يسير في مقدمة القافلة، على ظهر جمله، عينيه تبحثان بين التلال عن معلم يعرفه، عن حجرة لها هيئة مألوفة، أو ظلٍ يوحي باتجاه. لكنه لم يجد شيئًا... فقط رمل، ثم رمل، ثم صمت. خلفه كان أيوب. وجهه لم يكن كما كان في العبيلة؛ هناك، كان فيه نور، ابتسامة عابرة، ظل شاي دافئ في المساء. أما هنا، فالغبار أعاد إليه قسوته الأولى، النظرة الحادة التي لا تحتمل الخطأ.

صوت أيوب قطع السكون:

"أنت تكرر نفس الخطأ، يا ماجد... نحن لسنا على الطريق الصحيح"

لم يلتفت ماجد. شد لجام الجمل بقسوة كأن الصوت لم يبلغه، لكنه تمتم بمرارة:

"أنا أعرف هذه الأرض كما أعرف قلبي... لا تشكك بما لا تراه"

صمتٌ ثقيل، ثم صوت الجمال وهي تضرب الرمل بأقدامها المرهقة لكن أيوب لم يسكت:

-كفى عنادًا. الشمس ليست في موقعها المعتاد، والريح تأتي من الغرب لا من الجنوب... أنت تقودنا إلى جحيم آخر.

هذه المرة توقف ماجد نظر إليه. كان في عينيه تعب رجل سكن الصحراء طويلًا، تعب لا يصدر ضجيجًا، بل يحترق بصمت. اقترب منه، قال بهدوء فيه نصل خفي:

-إن كنت لا تثق بي، فانفصل عن القافلة... هذه ليست أول مرة تفعلها اصلا.
سالم كان يراقب من بعيد، عينيه تتنقل بين الرجلين كأنها تقرأ ملامح الشقاق قبل أن تُنطق ناصر، الصغير الذي استعاد عافيته منذ أيام، بدأ يشعر بالقلق يعود إلى جسده مثل الحمى القديمة. اقترب من أخيه، أمسك بثوبه، وقال بصوت خافت:

"هل سنضيع مجددًا؟"

لم يجب سالم. لم يكن يملك جوابًا.. ماجد ظلّ ينظر إليه دون أن يرمش، عيناه لا تغضبان... بل تتذكران.

قال ماجد بهدوء أشبه بصوت الرمل إذا دُفن فيه حجر:

-ومنذ متى أصبحت ترى؟ ألست أنت من ضاع في المرة الأولى؟ من سار خلفي رغمًا عنه؟

قال أيوب وعينيه اصبحت أكثر رمادية: -سرت لأننا كنا نحتاجك... لكننا اليوم لا نحتاج بطلًا، نحتاج عقلًا.

هنا، تحرك شيء في ملامح ماجد. كأن تلك الجملة ضربت في جرح قديم لم يندمل. اقترب خطوة، كسر المسافة أكثر، وهمس:

-أنا لم أطلب أن أكون البطل، يا أيوب. أنتم من دفعتموني إلى الأمام، ثم صرتم تنتظرون سقوط قدمي كي تتهموني بالجهل.

ارتجف جفن أيوب، لكنه لم يتراجع قال ببطء، كمن يختار كل كلمة كرمح:

-ربما... لأنك تحب أن تكون في المقدمة. لأنك تجد في الصمت احترامًا، وفي خوفنا طاعة.

ضحك ماجد ضحكة قصيرة، جافة، ثم أشار إلى الرمال الممدودة أمامهم:

-وهل رأيت في هذه الصحراء من يمشي في الخلف ويصل؟ من لا يقود، يُبتلع

ثم أشاح بوجهه، أراد أن يغلق الحديث، لكنه لم يستطع... فالألم في صدره كان أعمق من مجرد خلاف على الطريق. كان صراع رجلين، أحدهما تعب من حمل القافلة، والآخر تعب من المشي خلف من لا يُخطئ علنًا.

قال أيوب، هذه المرة بنبرة أقل حدة، لكن لا تقل مرارة:

-ربما لو تعلمت أن تتوقف لتستمع... لما اضطررنا للصراخ كي تسمعنا

سكت ماجد. ثم همس، بصوت بالكاد يُسمع:

أنا أستمع يا أيوب... لكن لا أحد يتحدث لي، بل عني. خلف ظهري

ثم رحل. تركه واقفًا هناك، وسط الصحراء، وبينهما سحابة من الكلام المبتور، والألم الذي لم يجرؤ أي منهما على تسميته.

لكن الصمت لم يدم طويلا...

فجأة، دون إنذار.....

ارتفعت سحابة غبار خلفهم، وصوت خيول تخترق الصمت كطعنة.

صرخ أيوب
"...خلف التلة! خيّالة"

التفت ماجد بسرعة، عيناه التقطتا أربعة رجال، يركبون خيولًا نحيلة، لكن نظراتهم كانت جائعة. سيوف قصيرة، أعين صفراء، أجساد مغبرة، مثل الأشباح الخارجة من رئة الرمل.
ركض ماجد نحو الجمل، سحب سيفه، صرخ في منعم:
"خذ الأطفال! إلى الخلف"

منعم دفع سالم وناصر خلف صخرة منخفضة، ووقف أمامهم بسكين صغيرة، يده ترتجف لكنها لم تتراجع.

اللصوص انقضوا لم تكن معركة... بل كانت صرخة حياة.
أيوب رمى أحدهم من على حصانه بحركة حادة، وهاجم الآخر بحجر أصابه في الصدغ. ماجد كان يقاتل بصمت، خطواته حاسمة، كأن الرمل يفسح له الطريق. لكن واحدًا من اللصوص اقترب من الجِمال، يبحث عن قرب الماء، عن أي كيس من الدنانير او من التمر أي شيء، فتصدى له منعم بجسده.

طعنه اللص بسكينه.....

صرخ سالم:

"منعم"

السكين مزقت كتفه. الدم نزل دافئًا، قاتمًا. سقط على ركبتيه، لكنه لم يصرخ، فقط عضّ على شفته، وقال بصوت باهت:

"ابقوا خلفي... لا تتحركوا"

ناصر بدأ يبكي، لكنه خنق صوته بيديه. سالم وضع رأسه على كتف أخيه، وقال بصلابة أكبر من عمره:

"لن يصيبنا شيء... منعم معنا"

أيوب، بعد إسقاط اثنين من المهاجمين، التفت إلى ماجد وقال:

" احسمها"

ماجد، الذي لطالما حمل ثقل الجميع، كان قد فعلها وقف في منتصف الرمال، وسيفه يقطر، وصوته عالٍ:

"ارحلوا... إن كنتم تبحثون عن حياة، فخذوا ظلّكم وارحلوا"

فرّ اللصوص، مهزومين.....

صمتت الصحراء، كأنها خجلت من الدم. كان منعم الميساوي ممددًا قرب الجِمال، رأسه مسنود إلى الرمل الدافئ، والدم يتسلل من تحت ثوبه كما تتسلل الذكريات من فجوات قلبه. حوله العالم يدور، الجِمال تئن، الرمال تلهث، والرجال يتناوبون بين النداء وربط الجراح، لكنه كان في مكان آخر.

في الشامان..... حيث الشمس تنكسر على جدران بيته الطيني، وصدى ضحكات بناته يملأ الساحة الصغيرة أمام الغرفة. فاطمة، زوجته، كانت تمشط شعر هالة، وترفع طرف ثوب سلمى لتغطي قدميها الصغيرتين، بينما رُقيّة، الأصغر، كانت تزحف بينهنّ مثل قطرة ندى تبحث عن صدر أمها. منعم كان يراقبهن من الباب، كتفه مستند إلى الحائط، وفي عينيه سكينة رجل يعرف أن هذا هو وطنه، لكن الوطن احيانا وحده لا يكفي.

-لا تطِل الغياب هذه المرة يا منعم، همست فاطمة وهي تمد له رغيف خبزٍ ساخن، رُقيّة بدأت تحاول الوقوف، أريدك أن تراها تمشي أول مرة.

لكنه أطال.... واطال كثيرا...

عاد الصوت إلى حاضره حين اقترب منه ماجد، ركع قربه، ووضع رأسه على ركبته، وقال بصوت مكسور:

اصمد... اصمد يا منعم، نحن لم نصل بعد.

اقترب أيوب، ربط الجرح بثوبه، ثم جلس وهو يتنفس بصعوبة، وقال لماجد بصوت خافت:

-ربما لم أكن مخطئًا... وربما لم تكن كذلك.

ماجد لم يرد. نظر في عيني أيوب، نظرة رجل كاد يفقد كل شيء، ثم أعاد بصره إلى منعم، الذي كان يهيم في تيهٍ أوسع من الصحراء.

مشت رُقيّة. سقطت، ثم نهضت. لكن منعم لم يكن هناك.

جاءه الخبر على ظهر قافلة عائدة من الجنوب، قالوا له: مشَت بنتك، وكانت تضحك، ثم نظرت للباب تنتظر وجهك. في الليلة نفسها، بلغه خبر موت أمه. كانت في غرفة ترابية، تدعو له كل فجر، وتنتظر وقع خطواته على الأرض. ماتت وهي تردّد اسمه، فسمع صدى ذلك في قلبه، لا في أذنه. منذ تلك اللحظة، لم يكن الترحال رحلة، بل خيانة مستمرة. كل غياب كان خنجرًا. كل كثيب عبره كان جدارًا بينه وبين بيته. فاطمة كانت تضع وشاحه على وسادتها، تنام عليه كل ليلة. تنتظر غروب الشمس كأنها تنتظر خبرًا، تصلي في الخفاء ألا يُطرَق الباب ذات يوم، بوجهٍ غريب وصوتٍ مبحوح:

"منعم... مات في المسير"

لكن الباب لم يُطرَق.

والآن، ها هو منعم، ينزف في مكان ما بين الربع الخالي والشامان، بين الحقيقة والذكرى، بين صوت فاطمة وهمس البنات.
ماجد شدّ على يده، وبدا كأنه لا يحمل منعم فقط، بل يحمل وزر الرجال الذين ضيّعتهم الرمال، والذين عاشوا نصف أعمارهم في التيه، والنصف الآخر في الحسرة. ثم جاءت لحظة صمت... كأن الأرض نفسها توقفت لتسمع. وفي قلب منعم، كان صوت أمه، وضحكة رُقيّة، ونظرة فاطمة، كلّها تعود إليه دفعة واحدة، كالنسيم الذي يأتي متأخرًا، لكنه لا يُنسى. كان لا يزال على قيد الحياة، **لكنه يعرف الآن أن العودة... ليست دائمًا إلى البيت، بل أحيانًا إلى نفسك، إلى أول لحظةٍ تمنيت فيها أن تبقى، لكنك رحلت.**

بلال... القادم من حافة الفناء

قارب الشهر وبلال يهيم في قلب الصحراء، وجهه احترق، جلده تشقق، وصوته خفت حتى صار يشبه أنين الريح. لم يكن يمشي، بل يُساق... يسوقه عناد القلب، لا قوة الجسد. كل يوم، كان يترك خلفه طبقة من جلده، من صبره، من إنسانيته. لم تعد لديه مؤونة، ولا حتى ذكرى طازجة. كل شيء فيه جف، إلا صورة أمٍّ تبكي، وامرأةٍ تصرخ: "ابنيّ ضاعا في الرمل!" وصوت داخلي يهمس له: إن لم تجدهم، فلتُدفن معهم.

خلال هذا الشهر، رأى كل شيء. السراب. الهلوسة. الليل حين يتحول إلى وحشٍ ينهش ما تبقى من دفء في قلبك. نهشته العقارب مرتين، وشرب من ماء آسن ثلاث مرات. مرّ بجمجمة بشرية نصفها مدفون، وترك عندها دعاءً سريعًا، ثم أكمل كمن يعلم أن النهاية لن تكون أجمل من البداية. وفي ليلة، رأى من بعيد وميض نور، كأن الأرض تذكرته. اقترب كمن يسير في حلم، كل خطوة تساوي العمر كله. وفي الهزيع الأخير من الليل، وصل.

رآها ساكنة: العبيلة. كأنها لم تتغير، وكأنها كانت تنتظره. تهاوى قرب البئر القديمة، جسده متعبٌ حد الموت، لكن روحه تصرخ: أنا لم أمُت بعد.

حين أخبر الصبيّ الصغير رجال القرية، اجتمعوا حوله كأنهم حول كنزٍ خرج من جوف الأرض. كان مغطى بالغبار، كأنه جُبل من رمل التيه. وحين خرج الشيخ محمد البرغوتي، وتأمل هذا الظلّ النحيل الملقى على العتبة، همس من خلف لحيته البيضاء: بلال...؟

فتح بلال عينيه بصعوبة، وشق ابتسامة تنزف وجعًا ونجاة، ثم قال بصوتٍ أقرب للبكاء: ما تركتهم يا شيخ...

الشيخ محمد لم يتردد لحظة، انحنى قربه، لمسه كمن يطمئن على جزءٍ منه ضاع ثم عاد. ثم قال بصوت مملوء بالدهشة والحنان:
"بلال... عدت، يا ولد الصحراء"

وبهدوء العارف، مدّ يده إلى أحد الرجال وقال:
-خذوه إلى بيتي

في بيت الشيخ، العتيق مثل ذاكرته، القائم تحت ظل السدر والأدعية القديمة، أسرعت هناء، ابنته الكبرى، حين سمعت صوت الباب يُفتح على غير عادة. لم تحتج إلى شرح، نظرت إلى الرجل الملقى بين يدي أبيها، ورأت فيه الغريب الذي يشبه القصص... ورأت في عيني أبيها ما يكفي من يقين لتعرف أنه ليس غريبًا تمامًا.

-اسقوه ماءً دافئًا... بلّلوا شفتيه أولًا...

قال الشيخ بصوته الذي يحمل أمرًا لا يُناقش، وعيناه لا تفارقان بلال.
هناء، التي ورثت من والدها هدوء النخيل وحزم الصحراء، جلبت الماء، بلّلت قطعة قماش ومسحت بها وجهه المتغضّن بالعناء. كان يرتجف، لكن دفء العناية بدأ يخفف من قسوة الطريق التي سكنت جلده. لم يكن الشيخ محمد بحاجة إلى أن يُسأل، فقد جلس قربها وأخذ يحكي لها بصوتٍ خافت، أشبه بالاعتراف قال وهو ينظر في عينيها كمن ينفض الغبار عن ذكرى قديمة:
"ألا تذكرين بلال؟"
ثم أكمل بابتسامة خفيفة:
-بلال ليس غريبًا عن العبيلة... مرّ بنا كما فعل الراحل ماجد، لكنه لم يكن عابرًا. سكنت

روحه هنا سنينا طويلة، في إحدى رحلاته القديمة، استراح في ظل نخيلنا، أكل من خبزنا، وعرف وجوهنا واحدًا واحدًا... وأحبّنا. ثم صمت الشيخ قليلًا وهو ينظر إلى وجه بلال المستلقي، وكأنّه يرى فيه وجوهًا كثيرة من الماضي، وقال بنبرة شجن:
-كنت أعلم أنه سيعود... فالصحراء لا تبتلع من تحب.

بلال، رغم الحمى التي تتراقص على جسده، كأنّه سمع كل ذلك. شفتاه ارتجفتا، ثم همس بشيء غير واضح، لكن هناء سمعت كلمات تتكرّر بين أنفاسه المتقطعة:
...الولدين... سالم... ناصر"

نظرت إليه، ثم إلى والدها، وقالت بصوت فيه رجاء:
"هل هما الذين مع ماجد؟"

فأومأ الشيخ، وقال وهو ينهض واقفًا:
نعم، الولدان مع ماجد الآن"

في زاوية بعيدة من البيت، على عتبة الباب الخشبي، وقفت سلوى، تراقب المشهد بصمت واهتمام. لم تكن مستعدة بعد لأن تقترب، لكنها لم تستطع تجاهل الشعور بأنها تعرف ذلك الرجل.
نام بلال في العبيلة كما لم ينم منذ سنوات. وكانوا إذا مرّوا عليه، سمعوه يهذي بأسماء، بسالم... بناصر...بالمنديل الابيض المطرز وأمٍّ كان يراها في كل غروب تقول له: ارجع، يا ابني... لقد تأخرت. لكنه لم يتأخر. لقد اقترب. نصف ميت، نصف أسطورة، وربما... رجلٌ جديدٌ وُلد من العدم.

وجوه في الانتظار

مرّ شهر.....

شهرٌ طويل، ثقيل، يتسلل بين أيام القرية كما يتسلل الحزن في صدور الأمهات. في بيتٍ على أطراف القرية، كانت جورية تجلس كل مساء قرب الباب، يداها لا تفارقان خرزات مسبحة قديمة، وعيناها لا تتوقفان عن النظر إلى البعيد... البعيد الذي لم يعد فيه سوى رملٍ وصمتٍ وقلقٍ يأكل القلب. وجهها صار أكثر شحوبًا، لا لأن الشمس غابت، بل لأن نور الأمومة تآكلته فكرة الفقد. لم تنَم ليلًا كما تنام الأمهات، بل كانت تغفو كأنها تتسول الراحة بين أطياف الكوابيس.

الجار يهمس للجار:

-هي ما عادت تأكل كثيرً

أما أم بلال،

فلم تكن تبكي، لكن الصمت في عينيها كان كافيًا ليبكي عنها من يراها. كانت تخرج كل صباح، تضع أمام بابها صحن تمر وكوب ماء، وتتمتم:

-إن عاد، لن يطرق الباب خاليًا.

لم تكن القرية حزينة فقط، كانت "معلّقة" بين سؤال لا يُجاب، وجواب لا يأتي. كل رملة كانت كأنها تخفي سرًّا، وكل ريحٍ كانت كأنها تحمل اسمًا من الأسماء الثلاثة، وتهمس به ثم تختفي. لكنهم، مع ذلك، كانوا كل مساء يُشعلون نارًا عند أطراف القرية، يقولون: لعل الغريب يراها، **ولعل الغائب، إن اقترب، يعرف أنه لم يُنسَ.**

محطة الحفاير

بعد أيامٍ طويلة من المسير، بدت الصحراء وكأنها تُصفي حساباتها مع القافلة، ترميهم بكل ما تملك من لهيبٍ نهارًا ومفاجآتٍ ليليةٍ لا تُحصى. الشمس، في عليائها، لم تكن فقط تحرق الأجساد، بل كانت تجفف الصبر من الأرواح، حتى باتت الظلال أمنية لا تُنال. ومع كل فجر، كانوا يظنون أن اليوم الجديد قد يحمل رحمة، لكنه كان يُخرج من جعبته امتحانًا آخر. منعم الميساوي، الجريح الذي ما زال يقاوم، الطعنة التي تلقاها في كتفه حين باغتهم اللصوص لم تندمل، لكنها لم تُنهِه. كل شهيق منه كان وعدًا جديدًا بالحياة، وكل زفرة حملت وجعًا لم يشكه. وجهه شاحب، ويداه ترتجفان حين يحاول أن يشرب أو يتحرك، ومع ذلك، فإن في عينيه ضوءًا صغيرًا، كأنّه لا يعترف بالفناء بعد. ناصر، بعد ما نجا من حمى الصحراء ذات مرة، عاد يُكابدها من جديد. عيناه نصف مغلقتين، وجسده يشتعل، وأصوات في نومه لم تعد كلمات، بل أنين، كأن الصحراء تحاول أن تأخذه في غفلة. وسالم، لم يعد طفلًا في هذه الرحلة؛ صار شاهدًا على الألم، يتنقل بعينيه بين جسد أخيه المرتجف، ومنعم الممدد بجانبه، وعقله يتوسل سؤالًا واحدًا لا يجرؤ على النطق به: من التالي؟ ماجد وأيوب، فكانا كالنار والماء. في لحظةٍ يتشاحنان، أصواتهما تخدش هدوء الصحراء، وفي لحظةٍ أخرى، يصمتان، يُكمّلان بعضهما كأن بينهما اتفاقًا غير معلن. أيوب، المندفع بالكلام والمواقف، كان لا يحتمل غموض ماجد، وماجد، المائل للصمت، لم يكن يحب عتاب أيوب ولا تهوره. ومع ذلك، لا أحد منهما استطاع أن يمضي دون الآخر؛ كأن صراعهم هو طريقة للبقاء.

كان الليل يحمل على ظهره أصوات الذئاب البعيدة، ونسماتٍ باردة تنفذ من جلودهم المتشققة. يلتفون على النار الصغيرة، يتقاسمون كسرة خبز، ونظرات متبادلة فيها ما يكفي من

التعب كي يُختصر الكلام. وفي تلك الليالي، حيث لا ضوء سوى النجوم، وسكون لا يقطعه سوى أنين ناصر أو سعال منعم، كان سالم يحدّق في السماء، يتمتم بينه وبين نفسه:
كيف ستنتهي هذه الرحلة؟"
"ومن منّا سيبقى ليحكيها؟

في تلك الليلة، حين نام الجميع على رمالٍ لم تعد تعرف الطمأنينة، وحين خفتت أنفاس منعم، وهدأت حمى ناصر قليلًا، جلس أيوب بعيدًا عن النار، يحدق في الجمرة الأخيرة كأنها مرآة لعمرٍ أضاعه بين طرق لا تعود. انفصل عن ضجيج القافلة، واستسلم للذكرى.
تسللت سعاد إلى ذاكرته كما تسللت إلى قلبه يوم التقاها لأول مرة بين خيام الغجر في أطراف وادي الساقية. كانت ترقص بالنار، لا حولها، شعرها أسود كسواد الليل في الصحراء، وعيناها سوداوان... لكنهما كانتا تقولان الحقيقة دون خوف. اقترب منها وقتها، وهو لا يدري إن كانت نبوءة أم نزوة، لكنها ابتسمت له، وقالت كما لو كانت تعرفه منذ عمرين: "أنت لا تنتمي إلى الرمل، بل إلى الريح... والريح لا تُربط". لم يفهمها، لكنه أحبها. وأحبته. لم يكن حبًا سهلاً، ولا وعدًا مأمون العواقب. كان جنونًا ناعمًا في عالمٍ قاسٍ. قضى معها شتاءً كاملًا، في كوخٍ مبني من القصب وقطع القماش المطرزة، صنعت له الشاي من أعشابٍ لا يعرف أسماءها، وغنت له أغانٍ لا كلمات لها، كانت سعاد غجرية الجسد، لكنها وطنٌ للضائعين.
وفي صباحٍ رمادي من شهرهم الأخير، وضعت له على صدره طفلها: مالك. قالت له: "هو اسمك الذي لن ينطفئ". ضحك وقال: "بل اسمه هو العهد الذي لن أخلفه". لكن العهد خُذل.

بعد عامه الأول، وبينما كان مالك يتعلم أن يقول "بابا"، غادر أيوب ليجلب المؤونة. الطريق الذي خرج منه لم يعد يقوده إلى نفس النقطة، ضاع في صراعات، في نكبات، في كرامةٍ جريحة وأيامٍ تجر أيامًا.

لم يرجع...

لم يعرف إن انتظرته سعاد...

لم يسمع بعدها شيئًا. واليوم، في قلب صحراء أخرى، على رأس قافلة تتآكل من الوجع، كان قلب أيوب ينزف بصمت، ليس على خلافه مع ماجد، ولا على تعب منعم أو حمى ناصر، بل على الطفل الذي تركه يقول "بابا"، ثم لم يعد ليسمعه. رفع رأسه إلى السماء، وهمس وكأن الهواء وحده سيسمعه: "**مالك... سامحني. أبوك لا يزال يمشي... ليس لأنه يعرف الطريق، بل لأنه خائف أن يتوقف**".

بعد أربعة أيام من المسير المتواصل، تحت شمسٍ تقشر الجلد، وليالٍ تعوي فيها الريح كأنها تبكي على من لم يصل، بدت على الأفق بيوت طينية متناثرة، كأنها تنبت من الأرض بصمتٍ قديم... كانت تلك قرية الحفاير.

توقفت القافلة عند أطرافها كأنها تزفر أنفاسها الأخيرة. منعم كان ممددًا على أحد الجمال، جسده ساكن، لا يتحرك إلا حين تهتز الدابة. عيناه نصف مفتوحتين، كأن الحياة تحاول التسلل منه دون ضجيج. شفته تشققت، وصدره يصدر أنينًا خافتًا لا يكاد يُسمع. أما ناصر، فكان في حضن أخيه سالم، يتنفس بثقل، والحمى قد أخذت منه الكثير، حتى صار كمن يصارع الطين كي لا يغرق.

نزل ماجد عن جمله، ركض نحو أحد أبواب القرية، طرقه بقوة، ثم نادى: "مريض... اثنان منّا بين الحياة والموت... نحن ضيوف لا نطلب سوى ستر الطريق".

امرأة مسنة، عيناها متعبتان، لم تسأل. أشارت بيدها: "أدخلوا... الماء موجود، والظل واسع، والرحمة أول ما نزرع".

دخلوا... وشيء في القرية بدا كأنّه يرحّب بتعبهم، كأنها أرضٌ تعرف ماذا يعني أن تمشي كل هذا الزمن، وفي ظهرك من يموت، وفي صدرك من لا يحتمل الفقد. كان الوصول أشبه بالحلم، لكن الحلم معلّق على خيطٍ رفيع بين النجاة... أو النهاية. ومنعم، كأن كل ما تبقى منه صار دعاءً في صدر ماجد. وناصر، كأن جسده الصغير لا يريد أن يخون أخاه، لكنه تعب.

كلهم وصلوا، نعم، لكن أحدًا لم يعد كما كان.

منعم، بين ثنايا الألم، شعر بثقل الجسد الذي خان إرادته، ويداه المرتجفتان كأنهما تحملان صرخة الروح، كاد أن يستسلم أكثر من مرة، لكنه تمسك بضوء خافت في عينيه، أملٌ لم يعرف كيف يُطفأ. كان يدرك أن هذه الأرض، تلك التراب المترب، قد لا تكون فقط ملجأً للجسد، بل بوابة لعزاء روحه المنهكة. ناصر، ذلك الطفل الذي تنازعته الحمى، كان يشعر بثقل كل نفسٍ يخطفه الهواء من رئتيه الصغيرة، لكنه لم يستطع أن يفرّ من عبء الوفاء لأخيه سالم، الذي ظلّ حاضناً إياه، يحميه بعيون تحمل حزنًا أعمق من عمره، ووجه يشحذ الغصة بين الضلوع. كان ناصر في داخله يعرف أن الرحلة لم تنتهِ، وأنه يحمل فوق كتفيه عبء البقاء، رغم ضعف جسده، ورغم التعب الذي صار يُجسد شكل الموت البطيء.

سالم، ذلك الشاهد الصامت، لم يعد مجرد طفل، بل صار حارس الألم والذكريات، عاقد العزم على ألا يسمح للرحلة أن تُنسى، ولا لأخيه أن يغادر الحياة بدون أن يرافقه إلى آخر اللحظات. عيون سالم التي تحمل أعباء الكبار، كانت تبحث عن بصيص نور وسط ظلام لا ينتهي، لكن داخلها كان يقينٌ صامت بأن لا شيء بعد هذا المسير سيكون كما قبل.
ماجد، بصلابته المعتادة، كان يشعر بثقل الغضب والذنب يتآكلانه. كل خطوة يخطوها كانت تتردد صداها في قلبه كسؤال بلا جواب. كيف يقود من فقد الأمل؟ وكيف يحمي من تآكلهم الرحيل؟ كان يعلم أن القافلة ليست فقط جسدًا من البشر، بل أحلامًا مكسورة، وآمالًا معلقة على خيطٍ رفيع بين النجاة والهلاك. رغم كل شيء، كان ماجد هو القائد الذي لا بد أن يستمر، حتى وإن كانت روحه تكاد تنكسر. أيوب، كان قلبه مثقلاً بغياب مالك، الطفل الذي تركه خلفه على أرض بعيدة، وكأن صوت "بابا" الذي لم يسمعه بعد، ما زال يطارده في كل خطوة. جلس بعيدًا عن الضجيج. كان يمشي ليهرب من الخوف، ليهرب من التوقف، لكنه لم يكن يملك سوى الألم والصمت.

في تلك اللحظة، كانت القرية ترحب بهم بصمتها العميق، وأراضيها المتعبة، والناس الذين عرفوا معنى الانتظار والرحيل. كانت الحفاير، ليست فقط مكانًا على الخارطة، بل قصيدةٌ للحياة والموت معًا، حيث كل قلبٍ ينبض حكاية، وكل جرحٍ يروي قصة انتظارٍ بلا نهاية. أدخلتهم العجوز إلى بيتها، وضعوا منعم على سرير ممترئ. كانت مليكة العجوز واقفةً بجانبه، جسدها نحيل، ويداها متشبثتان بعكاز خشبي يحملان أثقال السنين. وجهها مغطى بتجاعيدٍ عميقة، تحكي قصة عمرٍ من الصبر والانتظار، وعينان تعبّران عن حزنٍ دفين لم يمحُه الزمن. رغم قساوة الحياة التي مرّت بها، كانت ملامحها تحمل دفءً غريبًا، كأنها تزرع في المكان راحة لا تنطق بها الكلمات.

زوجها الراحل، شيخ الحفاير، كان رجلاً قويًا حكيمًا، ترك فراغًا لم تستطع أن تملأه سوى ذكرياته، التي ما زالت تحرسها بكل إخلاص. لم ترزق بمولود ذكر، فكانت بناتها الخمس سندها وأملها في الحياة. أما أخو زوجها، الشيخ حسن، فقد تولى زمام القيادة، وهو رجل صارم لا يلين، لكن عيني مليكة ترى القليل من الرقة في عينيه التي لا يعرفها أحد غيرها. في بيتها المتواضع، حيث تتقاطع رائحة التراب مع عبق الأعشاب القديمة، كانت مليكة ملجأً لكل من أتوا يبحثون عن الأمان، رغم قسوة الظروف وصمت الصحراء. كانت تستقبلهم بلا أسئلة، بلا أحكام، تقدم لهم الماء والظل والرحمة، تلك الرحمة التي زرعتها في قلبها بعد أن فقدت أكثر مما يمكن أن يحتمله إنسان.

وقفت بجانب منعم، تراقب أنفاسه المرتعشة، وكأنها تقول بصمت: لا تقلق، هنا ستجد راحة ولو لفترةٍ قصيرة. دخل أيوب الغرفة وجد مليكة تجلس بجانب النافذة، تحدق في الأفق كأنها تحاول استدعاء ذكرياتٍ بعيدة. نظرت إليه بعيون ثاقبة، ثم قالت بصوت هادئ لكن يحمل في طياته فضولاً عميقًا:
"من أين أتيتم بهذا التعب، وبذاك الوجع؟"

تنهّد أيوب، وجلس بالقرب منها، نظراته تائهة بين الحزن والقلق. أجاب بصوت خافت:
أتينا من بعيد، من رمالٍ قاسية وقلوبٍ متعبة. مدّت مليكة يدها، مسكت يده بحنان، وسألته بنبرةٍ حازمة:
"وماذا تأملون أن تجدوا هناك؟ في ذلك الطريق المجهول؟"

رد أيوب بمرارة:
النجاة... أو الموت، لا فرق. فقط لا نريد أن نموت هنا، في الطريق، بلا مأوى ولا رحمة.

رفعت مليكة حاجبها، ثم قالت بنبرة تحمل حكمتها:
-الصحاري تأخذ الكثير، لكنها أحيانًا تعطي أكثر مما نتصور. يجب أن تعرفوا أين تسيرون، وإلا ستضيعون كما ضاع من قبلكم.

ابتسم أيوب ابتسامة ضعيفة، وقال:
"نتعلم... نتعلم كيف نسير رغم الألم. وربما في هذه القرية، نجد فرصة لنبدأ من جديد"

نظرت مليكة إليه بعمق، وقالت:
" حسنًا، فليكن هذا المكان ملجأكم"

جلس الثلاث حول صينية القهوة التي أعدتها بنت مليكة، تعبق برائحة البن الطازج ودفء الخبز الرقيق. كانت الأنفاس مثقلة بالتعب، لكن في ذلك الركن الصغير امام بيت مليكة، بدا الوقت وكأنه يهدأ قليلاً، كأن الصحراء نفسها تمنحهم لحظة استراحة من قسوتها. نظر سالم إلى الخبز وكأنه يبحث فيه عن شيءٍ يملأ به فراغ قلبه، أما ماجد فكان يحدق في فنجان القهوة يبحث عن إجابات في أصدافه. وأيوب، الذي لم ينطق إلا بالكلمات الضرورية، أخذ يرشف القهوة ببطء، مستعيدا بعضًا من القوة التي سرقها التعب والقلق.

كانت بنت مليكة تراقبهم من بعيد، بابتسامة هادئة تحمل في طياتها قصة حزينة ممكن ان تروى.

الرحيل الذي لم نمنعه

جلس الثلاثة في صمت، كل واحد منهم يغوص في أفكاره، ويشعر بثقل الرحلة التي لم تنتهِ بعد، لكنهم وجدوا في تلك اللحظة الصغيرة من الدفء والهدوء سببًا ليكملوا المشوار.
ماجد جلس وهو ينظر إلى النار الصغيرة امام البيت الطيني، صوته منخفض لكنه حازم حين قال:
"لن نتحرك من هنا، لا أقبل أن نغادر قبل أن يشفى منعم. حياته أمانة بين أيدينا"

أيوب رفع رأسه، عينيه تشتعلان بالغضب والحزن، رد بسرعة:
وأين يكون ابني، يا ماجد؟ تركته هناك، وحيدًا في ذلك المكان القاسي. لا أستطيع أن أبقى ساكنًا بينما لا أعرف إن كان بخير.
تقدم ماجد قليلاً، ونبرة صوته تملأ المكان حزمًا:
أيوب، أعلم ألمك، لكن الرحيل الآن يعني موت منعم وموتنا جميعًا. علينا أن نتحد هنا، لنقف جميعًا على قدمينا.
تنفس أيوب بعمق، وصوته أصبح أكثر هدوءًا لكنه لا يزال مصممًا:
قلبي يقول لي أن أبحث عنه، ألا أدعه وحيدًا، أما عقلي فيقول إن أبقى هنا. لكن لا أستطيع أن أعيش على تردد، يا ماجد.

التقى نظر الرجلين، وكان في العتمة صراع أعمق من الكلمات، صراع بين الواجب والألم، بين العقل والقلب.

قال ماجد أخيرًا:
إذا ذهبت، فأنت تذهب وحدك. لن نسمح لأنفسنا أن نتشتت أكثر. القافلة تحتاج لكل منا، الآن أكثر من أي وقت مضى.

أيوب ابتسم بابتسامة حزينة، وقال:
"ربما يكون هذا قدرنا... أن يمشي كل منا دربه وحده"

دخل سالم بينهما، صوته يرتجف بحذر، محملاً بخوفٍ دفين وحنانٍ أخوي، قال:
أيوب، قد تكون الوحدة في هذه الصحراء قاتلة كما الجفاف... قد يحدث لك ما حدث لمنعم، فلا تترك قلبك يجرك إلى الهلاك. اتوسّل إليك أن تبقى بيننا، لا تهجرنا. التفت أيوب إليه، وعيناه تشعان بإصرارٍ لا ينكسر، رغم الحزن العميق الذي يخفيه في أعماقه. أجاب بصوتٍ هادئ لكنه صارم:
أنا أعلم تمامًا ما يكمن في الطريق، وأعلم أن النهاية قد تكون مظلمة، لكن قلبي لا يترك لي خيارًا. لا يمكنني أن أترك ابني وحيدًا في هذا الوجود القاسي، مهما كلفني الأمر.

تلاقى نظر ماجد وسالم، حاملة في طياتها القلق والرهبة، لكنها لم يستطيعا أن يوقفا عناد ذلك الرجل الذي يتحدى القدر بعزيمة لا تلين. كان قرار أيوب كالصحراء: قاسٍ، وحاد، لا يرحم.
بعد مرور أربعة أيام في الحفاير، ظل منعم ممددًا لكن تحسنت حالته بشكل ملحوظ. لم يعد الجسد الهزيل يستسلم للمرض، وصار ينطق بالكلمات بصعوبة لكنها كانت علامات أمل تتسلل إلى قلوب الجميع. اما ناصر قد تعافى تمامًا من الحمى التي عاودته للمرة الثانية، وعاد يتنفس بسهولة، ويلعب بخفة، وكأنّ روحه استعادت جزءًا من حيويتها.

في صباح ذلك اليوم الهادئ، حيث كانت أشعة الشمس تتسلل بخجل عبر نوافذ بيت مليكة، كان أيوب منشغلًا بتحضير جمله للرحيل. كان يتأمل في الحيوان الذي ربطه بحبل، يتفقد قربة الماء التي جهزها بعناية، وكذلك قطع من اللحم المجفف، كافية لأن تقيه عطش الجفاف وجوع الطريق، لكنه كان يعلم أن الرحلة ستكون صعبة ووحيدة. وقف ماجد بالقرب من الباب، عيناه مركّزتان عليه، ينظر إليه بتمعن وقلق. كانت نظراته محاولة صامتة لإيقاف ذلك القرار الذي يدرك عواقبه جيدًا، لكنه كان يعلم أيضًا أن هذا الرجل الصلب لا يُرد أمره بسهولة. كانا رفقاء درب، تجاوزا معًا أيام الألم والخطر، وتشاركا لحظات النضال من أجل البقاء، ولذلك كان ماجد لا يريد أن يتركه يذهب وحده. تقدّم نحوه بخطوات هادئة وصوته يملأه الهمس:

أيوب... هل فكرت حقًا فيما تعنيه هذه الرحلة؟ أن تتركنا هنا، مع منعم الذي بدأ يتحسن، ومع ناصر الذي يحتاجك؟ الطريق ليس رحيم، وأنت تعلم كم يمكن أن يكون موحش.

رفع أيوب رأسه، عيناه تعكسان ثقل القرار، لكنه كان مصرًا:

"ابني هناك، ولا أستطيع أن أتركه. مهما كانت الصعوبات، هذا واجبي"

وقف ماجد صامتًا، يتلمّس كلمات أخرى ليقولها، لكنه لم يجد سوى الصمت الذي يثقل الأجواء ا، بينما تحرك أيوب ببطء ليشُد حزام جمله، آخذ اخر نظرة على منعم الذي بدأ يهمس باسمه بصوت أضعف، وكأن القدر يربط بينهم بحبل غير مرئي. كان ماجد يراقب تحركاته، يشعر بأن هذه اللحظة قد تغير كل شيء، وأن رحيل أيوب لن يكون مجرد مغادرة جسد، بل انكسار لجزء من روح القافلة التي كافحت لتبقى على قيد الحياة.

اقترب ماجد وأشار إلى أيوب قائلاً بنبرة أخوية:

"إذا قررت الرحيل، فأعدك أن قلبي سيبقى معك"

أومأ أيوب، ورفع يده في تحية صامتة، قبل أن يضع قدميه على ركاب الجمل، ويبدأ المشي بخطوات ثابتة، يصطدم صوت حوافر الجمل بنعومة الرمال، بينما تحيط به نظرات من تركوا خلفهم آمالهم وأحلامهم.

مرّت الأيام الأولى بعد مغادرة أيوب كئيبة، كأنّ الصحراء نفسها تبكي على فراقه. اليوم الأول كان ثقيلاً على القافلة، وكل خطوة كانت تحمل في طياتها وجع الفقد والخوف من المجهول. أما اليوم الثاني، فكان أكثر قسوة، إذ بدأ اليأس يترسّخ في قلوب الجميع، وتملّكهم صمتٌ يثقل الأجواء، حيث لم يعد هناك كلام يُقال، فقط أنفاس متقطعة تنساب بين همسات الريح. واليوم الثالث والرابع، وكلما طال الوقت، تكاثرت الأفكار السوداوية في صدور منعم وماجد وسالم، الذين حملوا ثقل الحزن كأثقال الرمال على أكتافهم. فكانت وجوههم تحمل خطوط التعب والهموم، وعيونهم التي كانت تنظر إلى الأفق تبحث عن أمل بعيد، ظلت متعبة وكئيبة. أما ناصر، الطفل الصغير، فكان وكأنه في عالم آخر؛ صغير السن، لم يكن يدرك ثقل الحزن الذي يلف المكان. كان يلهو بين جوانب القافلة، يتسلق على الأحمال أحيانًا، ويضحك من قلبه، ينقل بين الجميع جرعة من البراءة والفرح، كأنه شمس صغيرة تحاول أن تخترق غيم الألم.

في الليل، حين يسدل الصمت ستائره الثقيلة على قرية الحفاير، وتخفت أصوات النساء في البيوت الطينية، وينام التعب في صدور الجميع، كان ماجد يفرش حصيره البالي إلى جوار منعم، يراقب أنفاسه المرتجفة تتصاعد وتخفت كأنها تمشي على حافة الحياة. ماجد لا ينام بسهولة. عيناه تحدقان في سقف الغرفة المعتمة، تارةً تراقبان منعم وتارةً تسترجعان وجه أيوب وهو يبتعد في الأفق، وتارةً تغوصان في داخله، حيث الخوف والحنين والحيرة يتزاحمون في صدره. كان جسده ممددًا على الحصير، لكن روحه لم تهدأ، كأنها تنتظر شيئًا لا تعرف اسمه، ولا موعد وصوله.

خارج الغرفة، كان سالم يفرش حصيره أمام الباب، يمد جسده النحيل إلى جانب ناصر، يحتضنه كما تحتضن الشجرة غصنها الضعيف في وجه الريح. ناصر، الذي عاد لعافيته بعد الحمى، ينام بعمق الأطفال، لكن حتى نومه كان يبحث عن دفء وطمأنينة، فلا يجدها إلا في صدر أخيه.

بجانبهم قربة ماء كبيرة، تتدلّى من عمود خشبي مائل، كأنها حارسة الليل، تسقي العطشان وتشهد على بكاء النائمين. كان سالم، قبل أن يغفو، يتمتم له تهويدة خافتة، لا تعرفها الأمهات ولا تدرّسها الجدّات، بل نسجها من خوفه وحنانه، ومن رمل الطريق الطويل. صوته بالكاد يُسمع، ناعم كنسيم الليل، يقول فيه أشياء لا تُقال في النهار:

...نم، يا أخي الصغير
العالم قاسٍ، لكن صدري وُجد ليحميك
نم، وإن رأيت ظلّي في حلمك، لا تخف،
أنا هناك... وإن غبتُ.

تهدأ أنفاس ناصر، ويضم سالم ذراعيه حوله أكثر، وكأن الليل لا يأمن إلا بهذا العناق، وكأن الحبّ وحده هو ما يصمد في وجه الفقد والمجهول. أما النجوم، فكانت تنظر من فوق، صامتة، حنونة، شاهدة على تلك الليلة التي رغم بساطتها، حملت في طيّاتها خيطًا دافئًا من الإنسانية، خيطًا يربط هؤلاء الهاربين من الموت بالحياة... ولو إلى حين.

حين لا يتذكر القلب

مرّت أيام ثلاث على بلال وهو نائم في بيت الشيخ، بين يقظةٍ خفيفة وهمسٍ بعيد، وكأنّ جسده لا يزال يمشي في الصحراء بينما روحه تستلقي في العبيلة. في النهار، هناء تسقيه بماءٍ دافئ، وتُطعم فمه المتيبّس قطرات من مرق العدس، وتغيّر له لفافات الجراح كأنها تعتني بذاكرة لا بجسد. وفي الليل، كان الشيخ محمد يجلس إلى جواره، يصغي إلى هلوساته كما يصغي للعواصف: لا ليمنعها، بل ليفهم من أين تهبّ.

في الهذيان، كان بلال يرى الوجوه التي نسي ملامحها، ويسمّيها:
"سالم... ناصر... أمهم تبكي... ... ... ابي أين أنت؟"
ثم يفيق لثوانٍ، ينظر للسقف الطيني فوقه، ويهمس:
"...اقتربت... لم أمت بعد"

وفي اليوم الرابع، نهض بلال، متكئًا على ساعديه، كمن ينتشل نفسه من قاع حلم طويل نظر حوله، ولم يرَ أحدًا، فقط صوت الطيور في الخارج، وضوء النهار يتسلل من شقوق النافذة الخشبية.
أخرج تنهيدة، ثم همس لنفسه:
"هذه العبيلة... لم أنسها"

بعد العصر، حين مالت الشمس كأنها تستعد للانتحار في حضن الأفق، دخل الشيخ محمد وجلس عند رجليه، وسأله:
"متى ستتكلم؟"

ابتسم بلال، ثم أشار إلى قلبه وقال:
"حين يهدأ هذا"

أومأ الشيخ، وفهم. ثم بعد صمتٍ طال، قال بلال بصوتٍ خافت:

ناصر سالم

أومأ الشيخ محمد، ثم قال:

انهم مع رجال اشداء لا تخف عليهم.

أسند بلال رأسه على الجدار، ومرّت في ذاكرته كلّ الطرق التي مشاها، كلّ الخيام التي سأل فيها، كل القوافل التي لم تجبه، وكل الصمت الذي تلقّاه جوابًا.

"لا بد أن ألحق بهم... لا بد"

ستنتظر، قال الشيخ محمد، جسدك لا يحتمل الرحيل الآن، والمكان الذي ذهبت إليه القافلة، ليس واضحا.

أطرق بلال برأسه. للمرة الأولى منذ ايام، سمح لدمعة أن تفرّ من عينه، دون أن يمسحها. كأنها كانت تذكرة عبور نحو الصبر. نحو البقاء. في تلك اللحظة، انفتح باب الغرفة على ضوءٍ خافت، ودخلت سلوى، تحمل صينية من النحاس المعتّق، عليها إبريق شاي بخاره يصعد، وفطائر ساخنة تفوح منها رائحة الزعتر والحنين. دخلت بخطوات هادئة، يسبقها عبير من الورد والتمر، كأنها لم تأتِ فقط لتقدم الشاي، بل لتوقظ شيئًا نائمًا في الزمان. حين وضعت الصينية، رفعت عينيها، فراته.

تجمّدت

تجمدت للحظة كأن الزمن انكمش فجأة، واصطدم بذاكرتها. هو... ذلك الوجه الذي لم تنسه، رغم تغيّره، رغم الندوب والغبار والتعب الذي غطّى ملامحه. قال قلبها قبل عقلها:

"...بلال"

ابن الخالة **أسيل.**

الشاب الذي كان يجلس معهم صغارًا تحت شجرة التين احيانا وتحت شجرة السدر خلف بيت جدها احيانا اخرى، يركض ويضحك ويخبّئ الحلوى في جيبه.

كم مرّ من الوقت؟

سنوات؟

حياة بأكملها؟

لم تعرف، لكنها عرفته. أما هو، فرفع نظره ببطء نحوها، بعينين غائمتين من التعب، ثم نظر ...سريعًا إلى الصينية، ثم إلى عينيها مجددًا.

ولم يقل شيئًا

لم يعرفها.

سلوى ابتلعت اسمها، كأنها خشيت أن تُثقله بذكرى لا يقدر على حملها الآن. ابتسمت ابتسامة رقيقة، حائرة، وضعت الصينية، ثم قالت بصوت منخفض:

"الشاي كما تحب يا جدي... وسخّنّا الفطائر من أجل الضيف"

لم تذكر اسمه. لم تذكر أنهم كانوا أطفالًا تحت هذا السقف ذات مساء. لكن عيناها ظلتا ترقبه كمن يرى نجاةً قديمة أو ضياعًا عاد ليطلب مكانًا على المائدة. الشيخ لاحظ كل شيء، لكنه لم يتدخل.

تركت الصمت يتكلم، فالصحراء تعلّمهم أن بعض الذكريات تحتاج وقتًا كي تُقال وبعض الوجوه، تحتاج ألمًا كي تُتذكّر. انصرفت بخطى هادئة، بعدما وضعت الصينية، وابتسامتها لا تزال معلّقة في الهواء، خفيفة كنسمة، وغامضة كأنها تعرف ما لا يُقال. رفع الشيخ كوب الشاي، وارتشف رشفة، ثم نظر إلى بلال وسأله بصوت منخفض:

"كيف هي الخرخير؟"

ابتسم بلال، ابتسامة أقرب إلى تنهيدة، وقال:

صاخبة كعادتها... تجاور فيها العتمة النور، والماء نادر، لكن القصص كثيرة. كل بيت فيها يحمل وجعًا، وكل وجه يحمل حكاية. **عشت هناك كما يعيش الغريب... قريب من الناس، بعيد عن كل شيء.**

أومأ الشيخ برأسه، ثم سأل:

"أوجدت لك فيها أهلًا؟"

سرحت في اعماق بلال ذكرى عندما رجع الى الخرخير بعد سنوات من الترحال والتيه. شعر بنفس الشعور عندما توقّف أمام كوخٍ صغير، لا يميّزه شيء عن الأكواخ الأخرى، سوى رائحة خبزٍ تذكّره بالبيت الأول، وصوت دعاء خافت يخرج من بين الشقوق، كأنّ البيت نفسه يئن ويشتاق. مدّ يده لطرق الباب، لكنه تراجع. هناك شيء في قلبه بدأ يخفق، لا كالمعتاد. شعور غامض... رعشة تُشبه تلك التي تصيبك قبل أن تبكي دون سبب. ثم فُتح الباب... لا من الداخل، بل من القدر. ظهرت امرأة، شاحبة، ملفوفة بثوب أسود، شعرها ...اختفى تحت وشاح أبيض، لكن عينيها...

نفس العينين
نفس الدفء
نفس الوطن

لم تتكلم
...نظر إليها كما ينظر طفلٌ إلى صورةٍ قديمة.
وهي... شهقت:

" بلال ولدي؟"
قالتها كأنها كانت تحفر هذا الاسم كل ليلة في سُجادة صلاتها، وتنفخه في الهواء كل فجر، علّه يعود.

"...امي"
خرجت منه الكلمة مكسورة، كأنّ الصحراء نفسها كانت تخنقها. ركضت إليه، احتضنته... ولم يعد هناك زمن. سنوات التيه اختزلت في دمعة واحدة. صراخ قلبها ظلّ مكتومًا، حتى احتوته ذراعاها وقالت وهي تلمس وجهه:

كنت أعرف... كنت أعرف أنك ما مت... كنت أرى وجهك في المنام، تعبر الرمل وحولك نار... لكنك لا تحترق... كنت تقول لي: اصبري

بلال سقط على ركبتيه أمامها، يُقبّل يديها، وجهها، قدميها كأنّ كل سنوات الغربة تُكفّر في لحظة كأنّه ولد من جديد. قال لها وهو يبكي:

سامحيني... كنت ضائع... ما كنت أعرف كيف أرجع... كنت ابحث على روحي، وما وجدتها إلا في عيونك.

أمسكت بوجهه وقالت:

"الذي يرحل عن الأم، لا يعود كما هو... لكن الله ارجعك لي و هذا اكثر من كافي."

في تلك الليلة، لم يُشعلوا نارًا في باحة البيت، بل أشعلت الأم شمعة، وضعتها في زاوية الكوخ، وقالت:

"هذه لن تنطفئ... حتى وأنا نائمة، يجب ان تظل مشتعلة... لأن ولدي رجع"

سحب بلال من الذكرى ورجع لحاضره ثم قال:

"وجدت أمي سيدة البيت السيدة اسيل"

رفع الشيخ حاجبه، انتظر، ولم يقاطع فأكمل بلال، بنبرة ثقيلة، كأن كل كلمة تخرج من عمق جُرح:

عدت إليها بعد سنوات الضياع التي كنت فيها هنا... سنوات كنت أهرب فيها من كل شيء، حتى من نفسي. لما رجعت... لم أكن أعلم إن كانت لا تزال على قيد الحياة.

تنهد الشيخ، ونظر إليه بعينٍ فيها حنانٌ عميق، وقال:

"بعض الأمهات لا يلدن أبناء... بل يخلقن المعجزات"

ضحك بلال ضحكة باهتة، وقال:

"كانت هي معجزتي الوحيدة، يا شيخ"

ثم رفع رأسه ونظر إليه نظرة حقيقية، صافية، وقال:

منذ أن عدت، لم أعد كما كنت... لكن لما اختفيا سالم وناصر، شعرت وكأنّ وجعها انتقل إليّ. لم أعد أحتمل أن أرى أمًّا أخرى تبكي ولا يفتح أحد الباب.

هزّ الشيخ رأسه، ثم وضع يده على كتف بلال وقال:

"لهذا رجعت إلى العبيلة... "

لم ارجع اليها، بل وجدتها صدفة وانا على حافة الموت كأنها كانت حاضرة تتفقدني تارة وتنقذني تارة أخرى سكت الاثنان، والشاي صار أبرد، لكن الذكرى جعلت المساء دافئًا كصدر أمٍّ لم تُقفل الباب يومًا.

في الجهة الاخرى من الباب خرجت سلوى من البيت بخطوات هادئة، وكأنّها تحمل في صدرها حملًا ثقيلاً من الذكريات والألم.
بعد ان وضعت الصينية، تركت ابتسامتها تحوم في الهواء، لكنها لم تكن تعرف ماذا تفعل مرّت عيناها على بلال، الشاب الذي تذكّرته ابن الخالة أسيل او كما كان يسميها بلال سيدة البيت، ذاك الوجه الذي كان في طفولتها ظلًا بعيدًا، أصبح الآن حقيقة حيّة.
لكن شيئًا في قلبها تشوّش، كأنّه موجة صمتٍ لا تستطيع كسرها، لوّثت فرح اللقاء بظلّ لا تفسير له. تجاهلت النداء الداخلي الذي كان يحثها على الكلام، وأخذت نفسها بهدوء، نحو شجرة السدر التي كانت تقف كحارس صامت على أطراف القرية، هناك، تحت أغصانها المتشابكة، حيث يلتقي ضوء القمر بنسمات الليل،

جلست بهدوء، تستنشق عبق الأرض والرمل، تشعر بثقل الزمن يمر فوق صدرها. كانت تلك الشجرة شاهدة على سنوات من الحكايات: خيبات، أمل، أسرار وأحلام مخبأة بين أوراقها. كانت تتذكر كيف صمتت في طفولتها، وكيف تعلمت أن تخفي دموعها بين ظلال السدر وكيف كان بلال حينها يواسيها، الولد الذي لا يتحدث كثيرًا امام الغرب كان معها هي كثير الكلام، حملت أنفاسها بعمق، تحاول أن ترتب مشاعرها المتشابكة، الألم والحنين، الفقد والرجاء، وكأنها تحاول أن تنسج في قلبها خيطًا جديدًا للحياة.

في ذلك السكون، تحت ظل السدر، بدأت كلمات لم تُقال تترقرق في عقلها، تُعيد رسم ملامح قصة لم تُكتب بعد. جاء طفل من بين ظلال الليل، يركض بخطوات صغيرة نحوها بصوتٍ مرتفع قال:
"يا سلوى... الخالة هناء تناديك"

وقفت سلوى ببطء، أخذت نفسًا عميقًا، وعينيها تتلمّسان عتمة السماء التي تلتهمها قلبها كان معلّقًا بين حيرة الذكريات، وبين خوف المواجهة.

على دروب الروابي

في قلب الصحراء، حيث لا ينام الرمل، ولا يسكن السكون إلا في عيون المتعبين، كان أيوب يمضي وحيدًا. رجلٌ لا يعرف الاستسلام، يحمل في صدره ثقلاً من الألم والحنين لا يطفئه سوى خطوة واحدة: أن يجدها... أن يجد الغجرية سعاد، وأن يجد مالك.

أطراف وجهه اتّخذتها الشمس لوحةً متشققة، وشعره الأسود المُموج يُحارب الريح التي تهب بلا هوادة. عيناه، رغم التعب، تحملان عزيمة لا تلين، كأنهما تخططان كلّ لحظة لخريطة الذاكرة، لعالمٍ ضاع بين الأقدام والكلمات المنسية.

اتخذ أيوب الطريق نحو الشمال، تلك الأرض المتغيرة، حيث كان آخر مكان لمحطّتها الروابي. كان يعلم أن كل خطوة تقربه منها هي حرب مع الزمن، مع الريح، مع الشوق الذي ينهش قلبه بلا رحمة. وفي صمت تلك الصحراء اللامتناهية، همس بينه وبين نفسه: إن كانت لا تزال هناك... فإن قلبي لن يهدأ... وإن لم تكن، فليكن هذا الرحيل دفنًا لذكرى لا أريد أن تخونني. كان وحيدًا،

لكن قلبه ممتلئ بالحياة، بالحب الذي لا يموت، وبالوعد الذي لن ينكسر. وبينما تغوص قدماه في الرمال الحارّة، كان الليل يهبط على الصحراء كشالٍ من الظلال، يلتقي بوشاحه الأسود على الكثبان فتتلألأ تحت ضوء القمر كأنها أمواج متجمدة. جلس قرب صخرةٍ صلبة، خطاه تترنح، لا من التعب، بل من ثقل الذاكرة... كان يراها تمشي أمامه، ضاحكة، ثوبها الأحمر يتطاير في الريح، ومالك يركض وراءها.

"مالك... ولدي... هل تشبهني؟ أم تشبهها؟"

همس السؤال في الظلام، ولم يرد عليه سوى صفير الريح وكأنها تعرف الجواب لكنها ترفض البوح.

في الطريق إلى الروابي، لم تكن الرمال وحدها ما يواجهه، بل الماضي بأكمله كان ينهض أمامه، ناعما أحيانًا، قاسيًا أخرى، وجوه مرت، خيانات انكشفت، وأحلام ذابت تحت شمس الغربة. لكنه مضى لأن قلبًا يحب لا يعرف العودة، ولأن رجلاً وعد امرأةً يومًا، ألا يخذلها، لا ينسى، ولا يتوقف....

في فجر اليوم السادس، لاحت له واحة من بعيد، خضراء من جهة ويابسة من جهة أخرى، كأنها كُتِبت بيدين مختلفتين: إحداهما تسقي، والأخرى تسرق الماء. لم تكن الروابي، لكنه شعر بشيء مألوف يهمس من بين نخيلها المائل، شيء يشبه آثار حلمٍ مرّ من هنا... أو رحيلٍ قديم لم يكتمل. توقف عند حافة التل الرملي، وبدا يحدّق في الواحة طويلاً.

مجرد محطة... تمتم لنفسه

بدأ يهبط نحوها، وعيناه لا تفارقان البقعة اليابسة منها، كانت تبدو كأنها احترقت مؤخرًا، أو داستها قافلة تبحث عن ظل ولم تجد، تركت وراءها الرماد وغيابًا لا يُفسَّر. اقترب أكثر، فبدأت تتضح له ملامح المكان: خيمة مهدّمة، نعلٌ قديم مطمور في الرمل، بئر نصف مملوء بالماء... وقلبه، قلبه يخفق كأنّه يوشك أن يسمع اسماً نسي النطق به، أو يلمح طيفًا اعتاد مراوغته. وقف للحظة، وأصغى... كأنّ الصمت يخبئ همسًا... كأنّ تلك البقعة اليابسة مرّت ...عليها نار، أو وداع، أو ربما امرأة ذات شعرٍ طويل وثوبٍ أحمر.

تسارعت نبضاته كانت الواحة تنذر بالكثير، وتعد بالقليل... ومع ذلك، كان عليه أن يدخلها، أن يفتش في بقاياها، أن يسأل الرمال الصامتة.

هل هي هنا؟

هل مرّت من هنا؟

أم أن قلبه بدأ يرى ما يشتهي؟

حين يتنفس المكان

في الحفاير، بعد مرور أيامٍ على رحيل أيوب، خفّت قسوة الصمت، وبدأت الأرض، شيئًا فشيئًا، تسمح للحياة بأن تتسلل من جديد. الوجوه التي دخلت القرية محمولة على أنفاس متقطعة بدأت تتلوّن ببعض الدم، وبعض الأمل.

ماجد، الذي كان لا ينام إلا قرب الباب، صار يشارك مليكة كل صباح في إعداد الخبز، يجلب لها الحطب، يمازح الأطفال، ويصلح السقف المائل لأحد الأكواخ. لم تكن العلاقة بينهما كلامًا كثيرًا، بل إيماءاتٍ متبادلة، واحترامًا ولد من النار والصبر، لكن هناك ما لا يُقال، نوع من الراحة الصامتة بين اثنين عرفا الفقد، واعتادا الانتظار الطويل.

سالم وناصر، صار لهما مكان بين أطفال القرية. يلعبون، يركضون، يتعاركون ثم يتصالحون كما يفعل الأطفال في كل أرض. كانا رغم ما حملاه من التعب، يُضحكان الأمهات، ويُحييان في الذاكرة تلك البساطة التي طوتها القوافل. منعم، الذي كان يومًا بين الموت والحياة، صار يجلس في فناء البيت على حصيرٍ بال، عيناه تتبعان الأطفال، وصدره يصدر شهيقًا أقل وجعًا. لم يكن يتكلم كثيرًا، لكن كلّ من حوله شعر بأنه عاد... بطريقة ما.

في ركن من أركان البيت، كانت شادية، ابنة مليكة، تراقب بصمت. في البداية، كانت تنظر إلى منعم كما ينظر الناس إلى الغريب لكنّ شيئًا في هيئته، في انحناءة كتفه، وفي صمته العميق، أيقظ فيها ذكرى بعيدة

زوجها، الذي أخذه المرض قبل عامين ذلك الشبه لم يكن شكليًا، بل إحساس كأن الحزن نفسه قد مرّ من هنا، وجلس في صدر منعم كما جلس في صدره يومًا.

كانت شادية تحضر له الشاي، وتبدّل له الماء، وتمسح التراب عن موضع جلوسه، لا تتكلم كثيرًا، لكنها كلما همّت بالمغادرة، كانت تهمس:
"إن احتجت شيئًا... أنا هنا"

ولم يكن منعم يرد لكن عينيه كانتا تقولان ما يكفي.

في ليلةٍ من ليالي الربيع، حين أُشعلت النار في الفناء، واجتمع الصغار والكبار حولها، كانت مليكة تحكي حكاية قديمة، وماجد يصغي، رأسه مائل قليلًا، وسالم يحتضن ناصر النائم في حجره، وشادية تراقب منعم... كأنه هو الوحيد الموجود. كانت الليلة دافئة، لا لأن الريح هدأت، بل لأن القلوب... بدأت تتنفس من جديد.
منعم، رغم تعافيه، لا يزال أسير صمتٍ طويل الجسد بدأ يقوى، لكن شيئًا في داخله لم ينهض بعد. في بعض الليالي، كان يتمشى قرب النخلة الكبيرة خلف البيت، يتأمل القمر وهو ينسكب فوق القرية، ثم يعود دون أن يقول شيئًا. أما شادية، فكانت تفعل ما تفعله النساء حين يحببن بصمت، تقدّم له الطعام، تحضر له القهوة، تسأل أمها عن حاله، منعم لم يلتفت. لم يكن قاسيًا، لكنه كان غائبًا. كلما رأى شادية تهمّ بخدمته، تذكّر زوجته.
حل الصباح هادئًا في الحفاير، والشمس تُطالع النخيل بنور خفيف، حين دوّى الصراخ فجأة: نسرين... وقعت في البئر.
ركض الجميع نحو مصدر الصوت: البئر القديمة، المهجورة، خلف شجرة النخيل. كانت تلك البئر، لسنوات مغلقة بصخرة كبيرة، لكن يبدو أن أحد الأطفال عبث بها. حين وصلوا، كانت أمّ الطفلة تصرخ، تدقّ على صدرها، والأطفال يلتفون حول البئر، ينظرون بعيون مرعوبة. نظر ماجد من فوق الحافة، وصاح: "هل يسمعني أحد؟" لكن الصمت كان هو الجواب.

جاء الشيخ حسن، تفقد البئر بعين خبير، ثم قال: عميقة... ولن نستطيع إنزال أحد دون حبل طويل.

كان الجميع يهمهم، والنساء يبكين، حين تقدّم منعم بخطوات ثابتة، خلع عباءته، شدّ الحبل إلى خصره، ونظر في عين الشيخ وقال: أنا أنزل.

اعترضت شادية، أمسكته من يده وهمست: لا تفعل... أنت لا تزال تتعافى.

لكنه لم ينظر إليها، فقط قال: في عيون هذه الأم، رأيت زوجتي... إن سقطت إحداهن، لن أنتظر أحدًا.

ثم نزل

البئر كانت ضيقة، مظلمة، رائحتها كريهة، وكلما نزل أكثر، ضاق الهواء، لكن منعم لم يتوقف.

صوت البنت بدأ يظهر كأنّه بكاء مكتوم، حتى وصل إليها، مرعوبة،

...ربطها بالحبل، وصاح للأعلى: اسحبوها

صعدت الصغيرة، وسط صرخات الفرح والدعاء، ثم بدأوا بسحب منعم، لكن يديه انزلقتا في الطين، وسقط.

صرخت شادية، وصاح ماجد: منعم

لكن في لحظة، ظهر رأسه من جديد، يتمسك بالحبل، والدم يسيل من جبينه. حين خرج، سقط على الأرض، أنفاسه متقطعة، لكنه حيّ. ضحك الصغار، بكت الأمهات، وعانقه ماجد.

أما شادية، فوقفت جانبًا، عيناها دامعتان، ثم استدارت ومضت نحو البيت، تهمس لنفسها: إن لم يحبني... سأحب نجاته.

في مساء اليوم ذاته، حين عادت القرية إلى هدوئها، كان منعم جالسًا قرب الباب، كتفه مضمد، وجبهته ملفوفة بقطعة قماش مبللة أمامَه إبريق شاي لم يشرب منه، وعيناه معلّقتان على العتمة التي تتسلّل من بين جذوع النخيل.

لم يكن جسده هو المتعب هذه المرة... بل روحه. شيءٌ ما تغيّر فيه بعد أن لمس البنت الصغيرة في قعر البئر. تذكّر بناته الثلاث ضحكاتهن، ركضهن بين الزرع، صوت زوجته وهي تقول له كل مساء: احكِ لي ماذا فعلت اليوم. ولأول مرة، منذ خرج من بيته، شعر أنّه نجا لا ليكمل الهرب... بل ليعود.

جاءه ماجد، وجلس بجانبه على الحصير، صامتًا كعادته. ثم بعد وقتٍ، قال: لم تكن مضطرًا لتفعل ما فعلت، يا منعم.

ردّ منعم دون أن ينظر إليه: كنت مضطرًّا، ليس لها... بل لي

مرّت لحظة، ثم أضاف: أنقذتها من البئر... وأنا خرجت من بئري.

صمت ماجد، ثم أخرج من جيبه حجراً صغيرًا، أعطاه له، وقال: هذه وجدتُها في طريقي يوماً، نقشٌ غريب على وجهها... كنت أظن أن لها معنى، والآن أظنه لك.

أخذها منعم، قلبها في يده، وقال: الغريب يا ماجد... أني ما عدت أبحث عن المعاني أبحث فقط عن الطريق.

من بعيد، شادية تراقب مرة أخرى. تسمع دون أن تقترب، وتهمس بين نفسها: ربما لا يريد أحدٌ أن يحبه الآن... لكنه يستحق أن يُحب من بعيد.

وفي اليوم التالي، منعم كان أول من استيقظ، جلب الماء، وركّب حجر الطاحونة، ثم جلس مع الشيخ حسن على المقهى الترابي عند أطراف الحفاير.

حين رآه الشيخ قال ضاحكًا: كأنك واحد منّا منذ زمن، يا منعم.

ابتسم منعم، ورفع رأسه إلى نخلةٍ عالية، وقال: ربما كنت دائمًا واحدًا منكم... ولم أكن أدري.

أما شادية، فقد بدأت كل صباح تضع بجانب إبريق القهوة كوبًا إضافيًا... لا تسأله إن كان سيشرب، لكنها تتركه هناك.

فبعض الأبواب لا تُطرَق... لكنها تُفتَح ببطء، حين يهدأ الداخل، ويشتاق الخارج.

ابريق قهوة

في الأيام التي تلت حادثة البئر، لم تعد شادية تمر بجانب منعم مرور الظلال الصامتة، ولا كان هو يغضّ بصره كما يفعل الغرباء. كانت نظراتهما تقول أكثر مما تجرؤ الشفاه على البوح به. في الصباح، حين تخرج من البيت لتضع إبريق القهوة على الجمر، كان هو يرفع بصره، ويقول بهدوء:

"صباح الخير"

فتجيبه بصوتٍ خفيض، فيه ارتباك أول اللقاءات:

"...وصباحك طيب"

وفي اليوم التالي، كانت التحية تسبقها ابتسامة، ثم تعلّقت الابتسامة بحكاية. كانت تبدأ بجملة عابرة، كأنها لا تقصد أن تتوسع:

"...الماء اليوم تأخّر في القدوم من البئر"

فيرد منعم وهو يتفقد السماء:

"الرياح تغير وجهتها... ربما هذا ما أخره"

ثم صمت. ثم استأنفا الحديث كأن بينهما اتفاقًا ضمنيًا على أن القهوة تُشرب مع القليل من الكلام.

يوماً بعد يوم، لم يعد الحصير عند عتبة بيت مليكة يجفّ من جلوسهما. شادية تأتي بالقهوة، تجلس في الطرف، وهو في الطرف الآخر. يتكلمان عن الطقس، عن القرية، عن الطفلة التي أنقذها، ثم فجأة، وجدا نفسيهما يتحدثان عن الحياة التي لم تسر كما أرادا.

قال لها ذات مساء، وهو يتابع خيط الدخان المتصاعد من فنجانه:
"تعرفين... لم أكن أظن أنني سأعيش يومًا آخر فيه شمس، بعد كل ما مررت به"
فقالت، وهي تمسح بيدها على طرف ثوبها:
"ولا أنا... بعد أن دفنت زوجي، كنت أظن أن الحياة ستدفنني معه"

لم يتبادلا النظرات هذه المرة، بل تركا للصمت أن يحفظ اعترافاتها. لكن القلوب كانت تتكلم وحدها. في أحد الأيام، جلسا صامتَين أكثر من نصف ساعة... لم يقولا شيئًا، ولم يكن بينهما حاجة للكلمات. كل رشفة من القهوة، كل تنهيدة، كل التفاتة إلى الأفق، كانت حديثًا كافيًا. وفي الليل، حين تعود شادية إلى فراشها، كانت تنظر إلى السقف الطيني، وتبتسم:
"إنه لا يعرف... لكنه يداوي قلبي دون أن يدري"

أما منعم، فكان يكتب في رأسه رسالة لا ينوي أن يرسلها:
أنا لم أنسَ بناتي... لكنّي وجدتُ في هذا المكان شخصًا يذكرني كيف كنتُ أبًا، وكيف يمكن للحياة أن تبدأ من جديد. لم تكن بينهما وعود... ولا اعترافات. لكن كل صباح، كان يحمل شيئًا جديدًا: صوت ضحكة خفيفة، نظرة أطول من العادة، كلمة ليست للحديث، بل للمشاعر. وقبل أن يحلّ عليها الغروب، كانا يجلسان من جديد أمام إبريق القهوة، **كأن كل ما يوجع في العالم يمكن أن يشفى ببعض السكون... وفنجان قهوة.**

شادية، ابنة مليكة الثالثة، كانت تشبه الفجر في قرية الحفاير... لا أحد يلحظه تمامًا، لكنه إن غاب، يضطرب النسق. في الثلاثين من عمرها، لم تكن جميلة الجمال الذي تسرقه العيون، بل كانت تحمل ذلك النوع من الجمال الذي يتسلل إلى القلب بهدوء... كما تتسلل رائحة الخبز من تنور الطين. وجهها هادئ، فيه شيء من الحزن القديم، وشيء من الرضا المتصالح مع الألم. عيناها واسعتان، بنّيتان كأنّ فيهما ظلّ نخلة في صيفٍ طويل، لا تبوحان

بكل شيء، لكنك تعرف أنها شهدتا الكثير. تزوّجت في العشرين، من راعٍ طيّب اسمه عبد الجليل، رجل لا يتكلم كثيرًا، لكنه كان يسندها كما يُسند الجدار بيتًا من الطين. دام زواجهما سبع سنوات، لم يُرزقا فيها بطفل، لكنها لم تشتكِ يومًا، كانت تقول:

"ليس كل فراغٍ يستوجب الامتلاء... بعض النواقص تصنع التوازن"

حين مات عبد الجليل فجأة ذات ليلة بردٍ قارس، أصابته الحمى، ولم يجدوا طبيبًا قريبًا، ظلت بجانبه تمسح جبينه حتى لفظ أنفاسه، وهمس لها:

"سامحيني... لم أستطع ان اترك لك شيء "

دفنوه عند شجرة التين خلف المسجد، ومن يومها، صارت شادية تميل للصمت. لم تعد تضحك مع بنات القرية، ولم تعد تخرج، كانت تقضي وقتها بين تنور الطين، وركنٍ في فناء البيت، تقرأ فيه كُتبًا قديمة تركها زوجها خلفه... ومن بينها دفتر صغير دون عليه عبد الجليل أبيات شعر بدوية، ورسائل لها، لم ترها إلا بعد موته. منذ وفاته، أصبح وجهها لا يشيخ، ولا يزهر... فقط يحتفظ بذلك التعب النبيل، الذي لا يُطلب فيه العطف، ولا يُرجى فيه المواساة.

...حتى جاء منعم

حين رأته أول مرة، كان ممددًا، محمومًا، منكسرًا، جسده يئن. رأت فيه ظل عبد الجليل، ذلك الرجل الذي كان يمرض ولا يشتكي. رأت فيه الرجولة التي لا تزمجر، بل تصبر. شيء ما في ملامحه جعلها تتوقف، تطيل النظر، ثم تنسحب بصمت. ومع الأيام، ومع كل مرة كانت تضع فيها صينية القهوة عند الباب، كانت تشعر بأنّه لا يملأ فراغًا، بل يُنبت شعورًا.

شادية لم تكن امرأة تبحث عن زوج، بل امرأة تبحث عن نبض، عن معنى صغير تجعل له مكانًا في عالمها البسيط. هي لا تحب الوعود، ولا تثق بالرجال الذين يتكلمون كثيرًا... لكن منعم لم يكن يتكلم كثيرًا. وكان هذا كافيًا ليجعلها تنتظر كل مساء، تلك اللحظة التي يلتقيان فيها... صامتين أولاً، ثم كلمات قصيرة... أمام إبريق القهوة.

كان منعم يستمع لكلام شادية، لكن عينيه تسرحان في وجهها، في حكايتها، وفي تفاصيل لم تعد تخيفه كما كانت تفعل في بداية الطريق. في تلك اللحظة، وبينما منعم تائه في تفاصيل تجاعيد جبهتها جاء ماجد. كان قد لاحظ منذ أيام تبادل النظرات... والابتسامات الصامتة التي لا تخطئها العين. لم يكن ضد القلب، لكنه كان يعرف ما يُخفيه الماضي، وما يمكن أن يخلفه التعلق الخاطئ في قلب رجل منهك.

اقترب، جلس دون أن يستأذن، وسكب لنفسه فنجانًا، ثم قال بصوته الخشن:
"القهوة صارت أطيب، أم أن الجلسة تغيرت؟"

ضحك منعم، متوترًا بعض الشيء، وشادية انسحبت بهدوء إلى الداخل، دون كلمة.
انتظر ماجد لحظات حتى تلاشت خطواتها، ثم نظر في عيني منعم وقال بصوت منخفض:
"أتعلم، يا رفيقي... زوجتك لم تمت"

توقف منعم عن الحركة، رفع رأسه إليه ببطء. أكمل ماجد:
-وبناتك... الثلاث. آخر مرة مررنا بالشامان، قالت أمهم إنك خرجت ولم تعد. كانت تضع الخبز قرب الباب كل صباح، وتقول لبناتها إن أباكم سيعود من السفر الطويل.

صمت، وترك الكلمات تتسلل كما يفعل الحنين. أغلق منعم عينيه، كأن السهم أصاب قلبه مباشرة.
"أنا... لم أقصد أن أطيل الغياب. كنت فقط أريد أن أجلب لهم حياة أفضل"

رد ماجد بهدوء:
-لكنك الآن، تجلس كل مساء أمام قهوة ليست من بيتك، وتتعلق بنظرة ليست لك، وتنسى أن هناك من ينتظر نظرتك هناك.

ابتلع منعم ريقه، ولم يجب. كان يعرف أن ماجد لم يأت ليوبخه، بل ليوقظه.

تنهّد، ثم قال بصوت مبحوح:
"أنا لم أنسَهم... لكني كنت أحتاج أن أتذكّر نفسي أولًا"

هز ماجد رأسه، وضع الفنجان جانبًا، ثم نهض وقال:
"تذكرهم جيدًا، قبل أن تُنسى أنت من قِبلهم"

ثم رحل، وتركه وحده، أمام إبريقٍ لا تزال حرارته تئن، وقلبٍ عاد يحترق... لا من العشق، بل من الاحساس بالذنب.

تفاصيل بعثرها الماضي

في الجهة الأخرى من العبيلة، تحت شجرة السدر العتيقة، كانت سلوى جالسة كما تفعل منذ أيام، ظهرها مسنود إلى الجذع القديم، وعيناها مغمضتان كمن يحاول أن يطفئ ضجيجًا داخليًا لا يسمعه سواه. الهواء يمر ببطء، يحرّك أطراف ثوبها ويعزف بأنامله على أغصان السدر، بينما هي غارقة في تلك المساحة الرمادية بين الذكرى والرغبة، بين الاعتراف والصمت. منذ رأت بلال وهو يرفع عينيه نحوها دون أن يعرفها، وشعور غريب يسكن صدرها... شعورٌ ممزوج بالعتب، الخذلان، وربما بالحزن على تلك الطفلة التي كانت تراه بطلها... ثم كبر كلٌّ منهما في طريق لا يشبه الآخر.

وفجأة، قطع سكونها صوت خطوات ثابتة... مألوفة. فتحت عينيها، فوجدته. الشيخ محمد البرغوتي، جدها، يسير نحوها بهدوء النخل حين ينحني في مواجهة الريح. اقترب منها حتى وقف أمامها، ثم جلس بجانبها دون أن ينبس بكلمة. كان يعرف حفيدته جيدًا... يعرف متى تصمت لتخفي، ومتى تبتسم لتخدع. لكن السدر، هذه الشجرة التي شهدت ضحكات طفولتها وبكاءها الأول، لم تعد تخفي شيئًا. بعد لحظات، قال بصوت عميق، دافئ، لا يوبخ ولا يواسي: "سلوى... هو لم يتذكرك، أليس كذلك؟" لم تجبه. فهمس بهدوء أكبر: "الذاكرة يا ابنتي، لا تسير معنا... أحيانًا تتأخر، أحيانًا تختبئ، وأحيانًا تختار أن تمحو ما نتمنى أن يبقى." نظرت إليه، وفي عينيها بريق غصة: "لكنني لم أنسَه يا جدي... كنت صغيرة حين رحل... كنا نلعب هنا، تحت هذه الشجرة. كان يقول لي: أنتِ في نظرهم بنت الخالة هناء... لكن بالنسبة لي أختي. ثم رحل دون ان يودعني. **رحل ولم يعد. واليوم عاد... لكنه عاد غريبًا.**

وضع الشيخ محمد يده على كتفها، وقال بلطف: "بلال عاد من صحراء أخرى... من موتٍ مؤجل. ربما لم يتذكر وجهك، لكن الله يعيد لنا من نحبّهم حين يتهيأ قلبنا... لا حين يتهيأ عقلنا." سكت، ثم نظر في عينيها مباشرة: "سلوى... هل أنتِ مستعدة أن تريه من أنتِ؟ أم أنكِ مثل كثيرين في هذه الحياة... تخافين من أن يُخيّبك التذكّر أكثر من النسيان؟" سقطت دمعة من عينها، لكنها مسحتها بسرعة، ثم همست: لا أعلم... أعلم فقط أن قلبي كان مطمئنًا حين عاد، لكنه الآن... مرتبك. أومأ الشيخ، ثم نهض، وربت على رأسها كما كان يفعل حين كانت طفلة.

أمام البيت الحجري كان بلال جالسًا فوق الحصير، مستندًا إلى جذع النخلة، يراقب الشمس وهي تهبط ببطء خلف كثبان العبيلة، يغمرها ذلك السكون الغريب الذي يأتي بعد العاصفة... سكون من لم يعد يثق في ضوء النهار ولا في وعود الغروب. مرت أيامه في القرية بلا كثير من الوجوه، أغلبها منسية، وبعضها عابرة، حتى أنه لم يعد يفرّق بين من رآهم صدفة، ومن رآهم في الحلم. رفع نظره فجأة، ثم التفت ناحية الدار وسأل، بصوت هادئ لا يخلو من فضول صادق: "يا ترى ماذا حل بسلوى، هل تكون هنا أم أنها تزوجت ورحلت؟" كانت هناء تضع وعاء ماء قربه، التفتت إليه ببطء، لم تُظهر أي دهشة، لكنها تريثت قبل أن تجيب، وكأنها تفكر في اختيار الكلمات التي لا تُشبه صدمتها. قالت، وهي تُنزل نظرها إلى الحصير: سلوى هنا، ورأتك. رفع حاجبيه، تفاجأ: "رأتني؟ ولم تقل شيئًا؟ كنت سأعرفها..." توقف، شعر أن في صدره فراغًا لم ينتبه له إلا الآن. هناء جلست قربه، وقالت: "ربما لم تتذكّرها... لكنها تذكّرتك." ظلّ صامتًا. حاول أن يستحضر الاسم، الوجه، الطفلة التي كانت تلعب قرب البئر، تركض خلفه، وتضحك حين يسميها "المدلّلة"، لكنه لم يجد في ذاكرته سوى ضبابٍ ناعم... خفيف... لا يمسك ولا يُنسى.

سأل بشيء من الخجل: "هي... من تكون؟" أجابت هناء: "البنت التي أحضرت لكم الصينية بالأمس." ارتبك بلال، شعر أن الأرض تمايلت قليلاً تحت الحصير. مرر يده على وجهه، ثم قال: "كنت سارحًا... ربما نسيتها، أو... نسيت نفسي." هناء لم تعاتبه، فقط نهضت وهمست: "بعض الذكريات لا تموت... لكنها تختبئ، حتى لا توجعنا." ثم تركته، وذهبت.

من بعيد، لمحها تمشي بعباءتها البيضاء، كأنها لم تتغير منذ تلك الأيام التي قضياها معًا تحت ظلال السدر، في العبيلة التي احتضنته ستة أعوام من عمره. خطواتها كانت هادئة، مألوفة... تلك الخطوات التي كانت تتبعه بها يومًا، حين كان يعدو مع الفتيان، وكانت هي تراقب، تضحك إذا ضحك، وتحزن إذا تغيّب. سلوى لم تكن غريبة عليه.

توقف الزمن لثوانٍ وهو يراها. لكن قلبه، على خلاف ذاك الماضي، لم يخفق... بل امتلأ بشيء هادئ... يشبه الحنين لا الحب... أما هي، فرأت عينيه تتبعانها، ثم استدارت بخفة، دون كلمة، دون اقتراب، كأنها تقول في صمت: "أنا هنا، لكنّي لا أطلب شيئًا... حتى الذكرى لا أريدها منك" لم تكن تنتظر منه اعترافًا ولا اهتمامًا. كانت تعلم أن ما في قلبها حين كانت طفلةً، لم يكن متبادلًا، وأن بلال، الذي كان يومًا رفيق ألعابها ومصدر إعجابها، لم يَرَ فيها سوى ظلّ أخت، أخت لم تجرؤ على قول شيء. لكن حين رأته الآن، جالسًا على الحصير، ملامحه أرهقها التيه، وقلبه لا يبدو في مكانه، تلك المشاعر التي خبت ذات زمن، اشتعلت لثوانٍ... ثم خمدت مرة اخرى. وفجأة، شقّ الصمتَ صوتٌ مجروح... صوتٌ تعرفه جيدًا، وإن غيّرته الصحراء والبعد والمرض:

"سلوى"

توقفت، كأن الصرخة علّقتها بين زمنين. استدارت ببطء، نظرت إليه. كان واقفًا هناك، على بعد خطواتٍ كثيرة، عيناه تتوسلان شيئًا لا يعرف هو اسمه، يده تشير إليها أن تقترب، أن

تأتي، أن يتحدثا، ألا تتركه وسط الغبار الذي لا يرحم. لكنها، بملامح ثابتة، وعينين بلا دمعة، أدارت وجهها، وأكملت طريقها نحو البيت. لم تكن قسوةً، بل حماية... منه، لها، لكل شيءٍ قد يُقال في لحظة ضعف ويظلّ عالقًا مدى الحياة. خلفها، وقف بلال في مكانه، يده ما زالت معلّقة في الهواء، ونظره يلاحقها حتى ابتلعها باب البيت الطيني، وبقي وحده، في مواجهة سؤال لا جواب له: لماذا شعرتُ أنها رحلت مرتين؟ دفعت سلوى باب البيت الطيني بصمت، كأنها لا تريد أن يُسمع صوت دخولها... وكأنها تخشى أن يسمع قلبها وحده، صوته هو، وهو يناديها بذلك الاسم الذي لم يلفظه منذ سنين. دخلت، مرّت أمام الغرفة التي يجلس فيها الشيخ محمد، دون أن تلتفت، ثم دخلت غرفتها، اوصدت الباب خلفها ببطء، وسمحت لنفسها أخيرًا أن تتنفّس. خلعت عباءتها، وعلّقتها على المسمار المائل قرب النافذة. جلست على السرير المهترئ، ثم ارتمت عليه، وغطّت وجهها بكفّيها... لم تبكِ. لم تبكِ منذ زمن طويل. حتى يوم موت خالها، حتى يوم رحيل أبيها من أجل أخرى، حتى حين بُترت ضفائرها خطأً في طفولتها بسكين أمها.

لكن الآن، في هذا السكون، شعرت أن شيئًا انكسر فيها، شيئًا ظنّت أنها رممته منذ أعوام كانت تراه أخًا، نعم. تقول لنفسها ذلك دائمًا. لكن لماذا توجّعها نظراته الصامتة؟ لماذا اهتزّ قلبها حين ناداها باسمها؟ لماذا شعرت، حين استدارت ورأته، أن كل العمر عاد لثانية، ثم انسحب من تحت قدميها كالماء؟ في الركن الايمن من الغرفة، توجد مرآة مائلة، قديمة، نظرت إليها، فرأت وجهًا متعبًا، لكن جميلًا... وجه امرأة لم تعد طفلة، لكنها ما زالت تحفظ ضحكة كانت له. همست بصوتٍ بالكاد يُسمع: أنا لم أكن أريده أن يذكرني... كنت فقط أريده أن يشعر بي. ثم أسندت رأسها إلى الحائط، وأغمضت عينيها، وفي صدرها، حربٌ صامتة تدور بين الكبرياء... وما تبقى من قلبٍ لم يُغلق تمامًا.

التيه الآخر

بين الأزقة الطينية، وركض الأطفال، ورائحة الخبز المنبعثة من فناء بيت مليكة، بدأت أقدامهم الصغيرة تعرف الأرض كأنها وطن، وكأن التيه كان حلمًا ثقيلًا فقط، لا أكثر.
ناصر كان يتأقلم، يندمج، يضحك... كأن روحه الغضّة اختارت أن تنسى، أو على الأقل أن تتظاهر بالنسيان. صار له أصدقاء، لعبة مفضلة، وحتى صوتٌ يعلو عند الغضب، وهذا وحده نصرٌ صغير. أما سالم، فكان مختلفًا. كان يراقب كل هذا من بعيد، بابتسامةٍ حذرة، كأنه لا يزال يخشى أن يكون كل هذا وهمًا سينقضي في الصباح التالي.

في داخله، كان هناك شيء يتحرك، شيء لم يُسمّه بعد. لم يكن الحزن فقط، بل سؤال لا يغادره: هل نحن حقًا بأمان؟ حين يجلس مع ناصر ليلاً، ويرى جسده الصغير قد استسلم للنوم، كانت روحه تتمزق ما بين الراحة التي بدأ يجدها هنا، وبين صورة أمه التي لم تغادره. لم يكن يتخيل وجهها فحسب، بل كان يشعر بكفيها وهما ترفعان وجهه، بعينيها وهما تفتشان عن أخيه فيه، وبصوتها وهي تردد دعاءً بسيطًا... دعاءً لا يحفظه، لكنه حفظ نبرته.

كان سالم في قرارة نفسه خائفًا من شيءٍ واحد: أن ينسى. أن تمر الأيام، وتبرد الذكرى، أن يصبح صوت أمه شاحبًا، ملامحها ضبابية، أن يذوب الحنين في طمأنينة مؤقتة. ولذلك، كان يتمسك بذاكرته لا كمن يحنّ، بل كمن يخاف أن يضيع أكثر.

في صباح الرحيل

مرت قرابة ستة أشهر، لم تعد الحفاير مجرد قرية نائية بين الكثبان، بل صارت لأصحاب التيه مأوى... وصارت لبعضهم مرآة. بين منعم وشادية، بات الصمت له نكهة، وللعيون حديثًا لا يحتاج إلى ترجمة. رغم تنبيهات ماجد المتكررة، لم تتراجع شادية، ولم يتقدّم منعم — بل التقيا في المنتصف، حيث لا وعود، ولا خيبات.

ماجد وجد في العجوز مليكة شيئًا يشبه الأمومة التي فقدها منذ دهور، صار يجلس عند بابها كل مساء، يتبادل معها السكون والنصائح ونظرات العارفين الذين لا يحتاجون للكلمات.

سالم وناصر كونا علاقات كثيرة ناصر لم يعد "الغريب الصغير"، بل ابن الحفاير، يلعب، يضحك، يركض. وسالم، برغم سكونه، صار وجهه معروفًا عند أهل السوق والعيال، لكنه لم يتخلّ عن صمته الداخلي، ولا عن يقينه القديم: سأعود

في صباح يوم الجمعة... ذلك الصباح الذي أطلّ بهدوء، لكن حمل في جوفه رجفة غير معتادة، أخبر ماجد الجميع بقراره:
-الرحلة... سنكملها. الطريق ما انتهى، بل توقّف مؤقتًا.
من العبيلة إلى الحفاير عبرنا التيه، لكن الألم الحقيقي ينتظرنا في العُويصي
قالها دون أن يرفع صوته، لكن الكلمات نزلت كحبات الرمل في عيون الجميع. منعم كان قد تعافى تمامًا، جرحي جبينه وكتفه التأما، لكن جرح روحه لا يزال ينزف ببطء.

شادية لم تقل شيئًا، فقط خرجت في الصباح الباكر، وضعت إبريق القهوة المعتاد، لكن هذه المرة، بجانبه منديل أبيض مطوي بعناية. منعم فهم الرسالة... ولم يعلّق.

سالم كان أول من لفّ أمتعته، أما ناصر، فبكى خلسة، ثم عاد ليجمع دُميته الصغيرة — تذكار الحفاير.

ودّعوا المكان بصمت. حتى العجوز مليكة، التي عادةً ما تبكي إن ودّعها أحد، اكتفت هذه المرة بأن وضعت يدها على قلبها، وقالت لماجد:
"إن وجدتَ الوجع... ضمّه، لا تهرب منه"

شادية واقفة عند مدخل البيت، عباءتها السوداء مرخاة على كتفيها كجناحين لا يقدران على الطيران، عيناها معلقتان بمنعم، لكنه لا ينظر... أو يتظاهر بعدم النظر. في يدها منديل أبيض مثل التي اهدته اياه، ليس لتوديع، بل لكبح الدموع، لكن دمعة واحدة خانتها، وانزلقت على خدّها كما تنزلق ورقة خريفٍ على صفحة ماءٍ ساكن. مليكة من بعيد، كانت تراقب بنتها بصمت الأنثى الحكيمة، رأت في وجهها ما لم تقله: الانكسار النبيل، الانتظار الذي لم يُطلب، والحنين الذي لم يُعترف به. كانت تعلم... تعلم أن شادية لم تُحبّه كما تحب النساء في الروايات، بل كما تحب الأرض مطرها الأول: دون شروط، دون صخب.

منعم، واقفٌ عند باب الساحة،
يحمل في كتفيه حقيبة صغيرة، وداخل صدره حقائب من ثقل الصمت والرحيل كان ينظر إلى الأرض، ثم رفع رأسه، تلاقت عيونه بعيني شادية برهة قصيرة، لكنها أطول من عمر التيه. في عينيه دمعة لم تسقط، كانت رجولته تمنعها من الانحدار، لكنها لم تمنعها من التشكل. هو لا يبكي، لكن قلبه يفعل. كأن روحه مدت يدها لتلمس روحها، وقال لها دون كلام:
"لو كان لي قلبان، لتركتُ أحدهما هنا"

شادية لم تتقدم، لم تركض، ولم تنادِه. كانت تعرف أن بعض الوداع لا يُقال، بل يُحس، وأن بعض القلوب حين تقف بعيدًا تكون أقرب مما لو التصقت. اقتربت مليكة منها بهدوء خطوات الأمهات حين يرون أبناءهن ينكسرون دون صوت، وضعت يدها على كتفها وهمست

...ما بينكما ليس حبًا عاديًا يا ابنتي

هو ذلك الشعور الذي يجعلنا نبتسم في حضرة الرحيل،

ونحزن لأننا وجدنا من يستحق أن يُنتظر لكنه لا يستطيع أن يبقى. أغلقت شادية عينيها، وتنهدت تنهيدة ثقيلة، وهمست للمنديل بين أصابعها:

"يكفيني ما عشت معه"

في تلك اللحظة، خطا منعم خطوة إلى الوراء، كأن قلبه تراجع قبل قدميه، ثم استدار وغادر لكن في الهواء ظل خيط خفي يشد بينه وبينها، كأن أرواحهما لا تزال تتعانق حتى وإن وقفا بعيدين. ساروا بخطى بطيئة نحو بداية الطريق. صمت كثيف لا يخترقه سوى وقع الحوافر وهمسات الرمل.

مرت دقائق معدودة وبينما بدأوا يبتعدون، قال منعم فجأة وهو يبطئ خطاه:

"...نسيت شيئًا"

نظر ماجد إليه، ثم إلى عينيه، فهم. ابتسم ابتسامة لا تقول شيئًا لكنها تُجيز كل شيء:

"اذهب... نحن بانتظارك"

ركض ناصر ليلهو بالحجارة، وسالم جلس تحت ظل نخلة قصيرة، وعيناه تتابعان دون أن يسأل.

عاد منعم وحده، يركض ركضًا خفيفًا، ليس خوفًا من التأخر، بل خوفًا من التردد. فتح باب بيت مليكة بهدوء، والبيت خالٍ، الصمت فيه كثيف، كأن كل ما فيه ينتظر رجوعه.

دخل الغرفة،
كانت شادية مستلقية على نفس السرير الذي كان ينام فيه، يداها مشدودتان على صدرها، كأنها تحتضن شيئًا وهميًا أو تقي قلبها من خيبة محتملة. حين سمعته، أو ربما شعرت به، فتحت عينيها فجأة. جلست، نظرت نحوه، وقلبها ارتجف، لا خوفًا، بل رجاءً.

قال دون أن يتقدّم خطوة:

"نسيت شيئًا"

سكتت، ثم أكمل، ويده على صدره:
"شيئًا لا يُؤخذ، لكن لا يُترك"

كانت تحاول أن تبدو متماسكة، لكن دمعة واحدة فاضت دون استئذان، نزلت على خدها، ثم اختبأت في ظل ابتسامتها الحزينة. تقدّم خطوتين، ثم ارتمى في حضنها، كأن جسده تعب من حمل كل تلك الرجولة، كأن صدرها هو الأرض الأولى بعد التيه. ارتجفت، لكنها لم تتراجع، مدّت يديها واحتضنته بكل ما فيها، احتضان امرأة لم تُمسّ مند زمن، لكنها انتظرت، امرأة لم تطلب، لكنها اشتاقت، امرأة لم تتكلم، لكنها فهمت.

دفن وجهه في كتفها، لم يقل كلمة، لكنه كان يرتجف... لم يكن البكاء واضحًا، لكن أنفاسه اختلطت بها، كأنها كانت تبكي نيابةً عنه. يدها راحت تمسح على ظهره ببطء، بحنانٍ لم يُدرَّب، بل وُلد معها.

قالت همسًا:
"كنت أعلم أنك تشعر بي"

رفع رأسه، عيناه دامعتان... ليست دموع ضعف، بل دموع رجلٍ أخيرًا وُجد، رجلٍ ظلّ تائهًا بين الرجال، وها هو وجد دفأه في حضن امرأة. ثم، دون تخطيط، اقترب، وقبّل خدها. قبلة واحدة... بسيطة... ناعمة... لكنها تحمل كل شهور التمنّع، كل لحظات السكون، كل فنجان قهوة تُرك بينهما باردًا دون لمس. لم تتحرك. لم تبكِ. لكن قلبها ارتجف كما لو أنه طُعن برعشة حبّ لا تُحتمل.

همست له:
"لا أريد أكثر... هذا يكفيني لعمرٍ كامل"

وقف، عيناه تفضحانه، كأنّه اعتذر بعينيه عن كل شيء قال وهو يخطو نحو الباب:
"لو لم يكن هناك من ينتظرني... لبقيت"

ردّت، وعيناها لا تفارقان ظله:
"وأنا... لو لم أكن من النوع الذي لا يمنع الرحيل... لطلبت منك أن تبقى"

فتح الباب، لكن قبل أن يغادر، التفت لها للحظة، رآها كما لم يرها من قبل: امرأة تقف على أطراف الألم، لكنها لا تسقط.

أغلق الباب وراءه وغادر، وظلّ حضنها الوحيد... الذي جاء في آخر اللحظات، أول حضن، وآخره، مختومًا بقبلةٍ لن تُنسى. حين عاد إلى القافلة، لم يقل ماجد شيئًا، فقط مدّ له فنجان قهوة، وقال:

"احتفظت لك بالوقت"

ردّ منعم وهو يركب دابّته:

"وهي احتفظت لي بالنظرة"

ومضوا نحو الشمال، تاركين خلفهم فنجان قهوة بارد .....

... لكنه ما زال يحتفظ

.....بالدفء.

قريب كالغريب

في العبيلة، سكنت الريح، وبدأ الصيف يمدّ ذراعيه فوق الرمال. الناس يعودون لأعمالهم بعد القيلولة، والأحاديث القديمة تتكرر كما الأغاني المتعبة. أما بلال، فكان يتحرّك ببطء، يسنده أحيانًا عكازه، وأحيانًا صبره. المرض لم يعد في الجسد وحده... صار له بيت في قلبه خصوصًا منذ أن صارت سلوى تمرّ بجانبه كما يمرّ الغريب: لا نظرة، لا كلمة، لا حتى ذبذبة حنين. رآها أكثر من مرة تحمل الماء من البئر، أو تسقي الزرع بجانب البيت الطيني، تمرّ بجانبه، تراه... لكنها لا تراه. كأنها أقامت بين عينيها وعينيه جدارًا من زجاج، يراه ولا يقدر على لمسه. يحاول ألا يُظهر شيئًا يساعد الشيخ البرغوتي في حمل الحطب، أو ترتيب السوق، أو مراقبة الأطفال في ساحات اللعب وفي كل عمل، ينزف من داخله دون أن يشعر به أحد. الشيخ البرغوتي، بعينه الحادة، لاحظ ذلك قال له يومًا وهما يجلسان تحت ظلال النخل:

"أنت تتحرّك بجسدك، لكن قلبك مربوط في مكان آخر يا بلال"

ابتسم بلال ابتسامة قصيرة، وقال دون أن ينظر إليه:

"ما يؤلم ليس الجفاء... بل أن أراكِ قريبة، ولا أستطيع حتى أن أقول : هل أنتِ بخير؟"

كان يتحدث إلى الشيخ، لكنه يقصد سلوى
والشيخ، بطريقته الحكيمة، لم يرد. فقط وضع يده على كتف بلال وقال:

"الأشياء التي تُحبّ بصدق... لا تُنتزع بسهولة"

في ذلك المساء، مرّت سلوى من أمام البيت الذي يجلس عنده بلال، رأته ينحني ليمسك حبل الغسيل، يتألم قليلًا، ثم يستقيم بصعوبة. لم تتوقف. لم تكلّمه لكنها، ولأول مرة أبطأت خطوتها دون ان تدري. هو شعر بذلك... لكنه لم يرفع رأسه فقط أغلق عينيه للحظة، كمن يقول:
"أنا هنا... إن أردتِ يومًا أن تلتفتي"

رأته... نعم، رأته.
لم ينظر ناحيتها، لكنها شعرت بعينيه كأنهما تحومان في الهواء بينهما، تترجى لحظة لقاء، كانت تعلم... أنه لم يتخلَّ عنها عمدًا، وأن في قلبه ما يمنعه من البوح، وأن كل هذا الجفاء بينهما ليس إلا خوفًا، من كلا الجانبين. مرت من أمامه كما تفعل كل يوم لكن هذه المرة، سمع قلبها يقول وهي تمشي:

"ليتني لم أرك تتألم... لأنني لا أستطيع أن أداويك، ولا أستطيع أن أكرهك"

حين وصلت إلى باب بيتها، وقفت قليلًا، نظرت خلفها دون أن تدير رأسها كان لا يزال هناك، جالسًا، كأنّه حجر قديم من بيوت العبيلة. دخلت الغرفة، أغلقت الباب وسمحت لدمعة واحدة أن تنزل دمعة لا تخصه وحده... بل تخص كل شيء: الصمت، الانتظار، الكرامة، الوحدة. جلست قرب النافذة، حدّقت في المنديل الذي خيّطته له بيديها قبل ان يرحل للمرة الاولى، ما زالت كل غرزة فيه تحمل دعاءً لم يقله لسانها.

همست لنفسها:

"لو التفت فقط... لو قال : اشتقت... كنت سأغفر كل شيء"

لكنّه لم يفعل.
وهي... لم تتقدّم وهكذا، بقيت القلوب واقفة على حافة الكلام،
لا هي نطقت، ولا هي نسيت.

حين غادر بلال العبيلة لأول مرة

حين وصل بلال إلى العبيلة اول مرة، كان صبيًا في الثانية عشرة، نحيف الجسد، تغطيه غبرة الطريق، لكنه كان يملك شيئًا لا يملكه كثير من الكبار عينان ثابتتان لا تعرفان الخوف وصل مع قافلة تجلب التمر والبخور من الشامان، لكنّه تاه... أو ربما تُرك، أو اختار أن يضيع — لا أحد عرف القصة كاملة كل ما عرفه أهل العبيلة أن الصبي وقف قرب النبع، سأل عن الشيخ محمد، وقال بهدوء لا يليق بطفل:

"إن لم تجدوا لي مكانًا... سأنام تحت النخل"

ضحك الشيخ محمد يومها، وأجابه:

"بل ستنام في قلبي يا بني، قبل بيتي"

وهكذا، صار بلال من أهل العبيلة، من قلبها. كان يساعد الكبار في حمل الماء، ويركض مع الصغار في الساحات، يتعلم، يسمع، يسأل كثيرًا، ويصمت كثيرًا لكنّ أحدًا لم يرَ في عينيه الحنين، إلا الشيخ محمد. سلوى آنذاك، كانت أصغر منه بعام واحد، طفلة خجولة، كثيرة التأمل، تراقبه وهو يحمل السلال، أو يصلح سياج الحديقة، كان يشبه في نظرها الفرسان الذين في الحكايات لكنه لا ينظر إليها إلا كأخت صغيرة، يربت على رأسها حين تمرض، أو يوبخها حين تخطئ، أحيانًا يضحك معها، وأحيانًا يتجاهلها تمامًا — كما يفعل الأخ الأكبر حين لا يفهم مشاعر أخته.

ولسنوات ست، عاشا تحت سقف واحد، هو ينام في الزاوية اليمنى من الغرفة الصغيرة، وهي في الجانب الآخر، يتقاطعان كل يوم، في الفطور، في حلب الماعز، في ترتيب الكتب، لكنّه لم ينظر إليها قط كما تمنّت. هي كبرت في الظلّ، تكبر كل يوم في صمت، ورغم صغر سنّها، بدأت تشعر أن ما تحمله نحوه ليس حبًا طفوليًا فقط... بل شيئًا أعمق. لكن بلال كان عقله كله هناك، حيث الأم تنتظره أو هذا ما كان يعتقد. حين بلغت سلوى السابعة عشرة، مرت قافلة راحلة إلى الخرخير، وقيل إنها ستتوقف هناك لأسبوع. كانت تلك فرصته لم يتردّد كثيرًا. أخبر الشيخ محمد بنيته الرحيل، فصمت الشيخ طويلاً، ثم قال له:

"لن أوقفك... لكنّي سأشتاق لك كما يشتاق القلب نبضه"

سلوى لم تُخبره بشيء
تظاهرت أنها لا تهتم
لكنها في الليل... بكَت حتى بللت وسادتها.

في يوم الرحيل، وقف بلال عند باب البيت، حقيبته خفيفة، لكن في عينيه شيء من الثقل... شيء لم يكن يعرف أن سببه سلوى. رآها من بعيد، تنظر إليه دون أن تقترب. لم يذهب نحوها، لم يودّعها، فقط قال بصوت مرتفع:

"أشكركم جميعًا... لن أنسى العبيلة"

أما هي، فوقفت خلف باب الحوش، لم يعرف بلال أن قلبًا صغيرًا ترك جزءًا منه معه ولم تعرف سلوى أنها بدأت تكتب قصة لم يعترف بها أحد، لكنها ستبقى... حتى بعد عودته.

بعد أن غادر، دخلت سلوى في حالة من الفوضى العاطفية غير المفهومة. في البداية، ظنت أن الرحيل سيكون كغيره من الغيابات القصيرة التي مرت بها القرى والمارة، ولكنها كانت مخطئة. في الأيام الأولى، كانت العبيلة تبدو كالعالم الذي تجمد. البيت القديم الذي كانت تراه ممتلئًا بأصوات بلال، لم يعد ينطق بشيء. زاويته في البيت، التي كانت تحتوي على رائحته والتمر والأمل، صارت فارغة، باردة، كأنها مغلقة على نفسها.

مرت أيام، وسلوى كانت تذهب إلى نفس الأماكن التي كان يمر بها، تنتظر أن تراه يعود، لكنها لم تفهم بعد أن الفقد ليس له ملامح واضحة، بل مجرد فراغ يمتد. اصبحت تتجول بين الزهور التي زرعها، تُلمس يدها من قسوة غياب الأشياء، ثم تقف عند نبع الماء، كما اعتادت أن تفعل حين تتحدث إليه عن أمنياتها ولكنه لم يعد هناك، ولا أحد سيتحدث معها بنفس الطريقة.

في ليلة من الليالي الأولى بعد رحيله، جلست سلوى عند باب بيتها، تراقب السماء كانت تعلم أن بلال يرى نفس النجوم، لكن بينهما كان هناك بحر من الغياب لا يعرف كيف يعبره.

"لماذا تركني؟ لماذا لم يتحدث لي عن شيء آخر غير الرحيل؟"

كانت تسأل نفسها، لكن لم تجد إجابة. كان كل شيء غريبًا: الفراغ الذي خلفه، والمكان الذي صار يصيبه الصمت، والضحكة التي اختفت. ومع مرور الأيام، ازداد قلبها قسوة كانت تخرج في الصباح، تهمل الناس، تبتسم قليلًا للجيران، ولكن في داخلها لا زالت تتساءل:

هل أحببته حقًا؟ هل كانت مشاعري مجرد تابعة لأخي الأكبر، أم أنها كانت بداية لحبٍ من نوع آخر؟

أشهر وايام وسلوى لازالت تذهب إلى نفس المكان الذي كانت تجلس فيه مع بلال تحت شجرة التمر. تبكي الى ان تجف دموعها وتتورم جفونها. كان شيء عميق جدًا داخلها يتفجر، ولم تكن تعرف كيف تعبّر عنه.

لما رحل بلال، كان الطريق أمامه واضحًا، لا يحمل معه سوى حقيبته وأحلامه القديمة، ورغبة عميقة في العودة إلى أمه. كان متحمسًا، وكأن سنوات من التشتت قد انتهت أخيرًا، وكأن العودة ستكون خلاصًا. لكن، مع مرور الأيام، كان يكتشف شيئًا آخر، شيئًا لم يكن ليعترف به، ولم يكن ليشعر به إلا حين يبتعد عن المكان الذي كان يحمل فيه جزءًا من قلبه. الرحلة كانت طويلة، قافلة تتوقف في القرى، والنخل، والشمس الحارقة... ولكنه كان يفكر في شيء واحد:

سلوى

في البداية، حاول أن ينشغل في العمل، في الجمال الذي يراه في الطريق، لكن كلما ابتعد أكثر، كان يشتاق أكثر. كان يشعر بهذا الفراغ الذي يزداد مع كل خطوة. لم يكن يعرف إن كان يحبها أم لا، لكنه كان يعلم أنها كانت جزءًا من حياته، جزءًا من تفاصيل يومه التي لم يكن يدرك قيمتها.

في إحدى الليالي، حين توقفت القافلة للراحة، جلس بلال على الحافة بعيدًا عن باقي الرجال. أخرج من حقيبته، ذلك المنديل الابيض المطرز وبعض التمر الذي كان يحمله لكن طعمه لم يكن كطعم التمر الذي كان يشتركه مع سلوى. أغلق عينيه للحظة، وابتسم بحزن، كأن قلبه يطلب منه أن يعود.

"لماذا أشتاق إليها؟ هي مجرد أخت... أليس كذلك؟"

لكن كانت هناك لحظة، واحدة فقط، شعر فيها بشيء يختلف حين كان يمر بأحد الأسواق، رأى امرأة تربط شعرها بنفس طريقتها، قلبه توقف للحظة شعر بشيء يشبه الرغبة في الاحتفاظ بشيءٍ ما في الماضي، أو ربما كان الحنين إلى الحديث الذي لم يتم، إلى الكلمات التي لم تخرج. شعر بشيء غريب يغزوه في كل مرة يبتعد فيها، كأن قلبه يصرخ في وجهه

"لقد تركت جزءًا من نفسك هناك"

على بابٍ لا يُشبه بابي

وصل أيوب عند الغروب. الواحة كانت غريبة عليه، لم يعرف بيوتها، لا نخيلها، لا لون ترابها. لكنه تعلّم مع الزمن أن اليأس أحيانًا يلبس ثوب الأمل، ويدفعك للطرق على أبوابٍ لا تشبه أبوابك. أربعة بيوت فقط، ما زالت قائمة رمادية، بلا بهجة، يخرج من شقوقها الضوء كأنها تتنفس على استحياء. لا مواشٍ لا ضجيج لا صغار يركضون خلف الدواب فقط شيوخٌ متعبون ونساءٌ يغسلن أوعية لا يعرف أحد من أين جاء فيها الطعام. اقترب وهو يجر خطواته.

من أحد البيوت، خرج شيخٌ بلحية بيضاء، عيناه متعبتان، لكنه يقف كما يقف من تعوّد الحياة في عزلة. سأله بصوت ناعم لكنه جاف:

"من أنت؟ وما الذي جاء بك إلى هنا؟"

توقّف أيوب لحظة تأمل عيني الشيخ، المكان من حوله، صمت البيوت، ثم قال:

"أنا مسافر... أبحث عن امرأة... وطفل"

نظر إليه الشيخ قليلًا، ثم قال:

"ما أكثر من يبحثون، وما أقل من يجدون"

تنهد أيوب، اقترب أكثر وقال:

"اسمها سعاد، والطفل اسمه مالك..."

هزّ الشيخ رأسه نفيًا، ثم قال:

ما دخل هذه الأرض امرأة باسم سعاد، ولا نادينا يومًا طفلاً باسم مالك هنا... لا أطفال منذ زمن الأرض عقيمة، والقلوب كذلك

أحسّ أيوب أن شيئًا في داخله انكسر ليس لأنه لم يجدها، بل لأنه صدّق للحظة أن الطريق هذه المرة سيكون مختلفًا. لكنّه تمالك نفسه، سأل:

"منذ متى أنتم هنا؟"

رد الشيخ بتجاعيد ضمت جبينه حتى أصبح لا يرى:

منذ أن مات المطر... وجفّ الحنين. جئنا بعد أن تهجّرنا من الشمال هذه الأرض لا تعرف الأسماء، فقط تعرف من يصبر.
جلس أيوب على صخرةٍ قريبة عينيه تمسحان المكان، في كل زاوية يبحث عن ظلّ يشبهها عن صوتٍ يشبه مالك. لكن لا شيء سكت طويلًا ثم سأل:

"وهل مرّ من هنا أحد... يسأل عن الطريق؟ يسأل عن رجل اسمه أيوب؟"

قال الشيخ بعد تفكير:

هنا لا أحد يسأل عن أحد وإن سأل... ينسى السؤال حين يطول المكوث.

وقف، شكر الشيخ، ثم التفت ليرحل، نظر للسماء، ثم همس:

"يا رب... أرشدني لها، ولو حلمًا"

ورحل ....

لم يبقَ من زيارته سوى آثار خطوات، ومنديل شدّه على قلبه لئلا يتبعثر أكثر.....

الاستراحة في الزلفي

بعد قرابة أسبوعين من المسير، على الطرقات التي لا تنتهي، وتحت شمس تشبه الجمر المعلّق، وصلت القافلة الصغيرة إلى الزلفي — قرية وادعة، تحتضن أطرافها النخيل، وتتنفّس الطمأنينة من الآبار العذبة. كان الوصول عند الغروب. أجسادهم منهكة، وقلوبهم أكثر تعبًا من الأقدام. ما إن دخلوا حتى استقبلهم أهل القرية بترحاب صادق، وجوه بريئة، أيادٍ تمتلئ بالخبز والتمر والماء، كأنهم يعرفون أن القادمين يحملون من التعب أكثر مما تُظهره ملامحهم. قرروا البقاء يومًا... أو يومين... وربما ثلاثة، فالزلفي ليست كغيرها من القرى؛ فيها شيء يشبه النسيان المؤقت، مكان يشعر فيه العابرون أن بإمكانهم أن يتوقّفوا دون أن يبرّروا لماذا تأخروا. جلسوا في ظلّ نخلة قرب البئر الكبير، ماجد يشرب بصمت، منعم يحدّق في الماء كأنه يرى وجهًا آخر، سالم يمسح العرق عن جبينه ويتلفّت... يبحث عن أحد يعرفه، أما ناصر... فكان يركض خلف دجاجة ويضحك، في عينيه دهشة من كل شيء: الأبواب، الطين، صوت النسوة وهن يخبزن، كل شيء بالنسبة له لعبة.

منعم كان صامتًا، أكثر من المعتاد. تبدو عليه الراحة، لكنّ عيناه لم تغادرهما شادية. في كل تفصيل يرى وجهها: في صوت امرأة تغني لطفل، في رائحة القهوة، في ظلّ العباءات السوداء التي تمرّ، يرى ظلها في طرف المنديل، في طريقة فتاة تحمل الإبريق، كأن القرية كلّها صدى من ملامحها. كان يمشي بجانب ماجد، وفجأة قال:

"ماجد... كيف تعرف أنك تحب امرأة؟"

نظر إليه ماجد، لم يجب فورًا، ثم قال:

"إذا سارت بجانبك دون أن تمسك يدك، لكن قلبك مشى معها... فأنت تحبها"
منعم ابتسم ابتسامة باهتة وصمت.

أما ماجد، فلم يكن مشغولًا لا بشادية، ولا بالعسل، ولا بأي امرأة، قلبه معلقٌ هناك... عند أمه جميلة. كل قرية يمرون بها، كل عجوز تمر بقربه، يتأمل وجهها لوهلة... ثم يهزّ رأسه ويواصل. لم يكن يتكلم كثيرًا، لكنه حين ينام، كان يهمس باسمها في نومه. مرةً، استيقظ سالم على صوت أنينه وهو يقول:
"سامحيني"

في صباح اليوم الرابع وبعد الاستراحة القصيرة التي نعموا بها، استفاقت القرية على وقع خطواتهم وهم يتهيؤون للرحيل. الشمس لم تشرق بعد، والهواء كان نديًا، يحمل نكهة التمر والماء والنوم الهادئ. ماجد كان أول من استيقظ، جلس على صخرة صغيرة خارج الخيمة، يحدّق في المدى، ثم بدأ يطوي خريطته بصمت. منذ الليلة الماضية، وهو يشعر بأن البقاء أكثر... يعني الانفصال عن الطريق.
"العُويصي لا تنتظر" قالها في نفسه
ذاك الاسم وحده كافٍ لأن يحبس أنفاسه
العُويصي ليست مجرد مكان... بل هي الجرح المفتوح، الوجهة التي يخشاها ماجد خائفا ان يجد امه رحلت منذ زمن،. منعم خرج بعده بقليل، كان قد نام جيدًا، في داخله، لا تزال شادية تمشي معه، على الحافة، بين الذكرى والتمني. وقف بجانب ماجد، ثم قال بصوت منخفض:
"هذه القرية... جعلتني أتمنى ألا أرحل"

ماجد لم يلتفت، فقط قال:
"كل من أحب البقاء... نسي لماذا خرج"

سالم كان آخر من استيقظ، كان يحلم، ربما بأمه، وربما بطفولته الأولى. نهض ومسح عينيه، وحين رأى الظلال تتحرك استعدادًا للرحيل، قال:
"هل سنكمل؟ هل اقتربنا من العُويصي؟"
ماجد أجابه وهو يربط أمتعته:
"اقتربنا من الخوف يا سالم، لا من النهاية"

ناصر كان مشغولًا بمحاولة إقناع دجاجة صغيرة بأن تأتي معه، لكن امرأة من أهل القرية ضحكت وقالت له:
"يا بني، هذه دجاجتنا... لا تعرف طريق التيه"
ضحك، ثم ربت على رأس الدجاجة، وودّعها كما يودّع صديقًا. ركبوا دوابهم، وساروا بخطى بطيئة نحو الشمال الغربي. الشمس ارتفعت، والصمت سبقهم. لم يتكلم أحد لساعات، حتى ناصر، نام على ظهر دابته. الطريق إلى العُويصي... طويل، لكن الأثقل من الطريق، هو ما سيجيدونه هناك.

جورية... التي ابتلعها الغياب

في الخرخير، حيث الرمل أكثر من الزرع، والظل شحيح، كانت جورية تمشي... لا وجهة، لا سلام، لا عقل، كما كان منذ اختفى سالم وناصر، منذ ذلك اليوم الذي صرخت فيه الأرض باسميهما ولم تجب. تحوّلت جورية من أم... إلى أثر باهت لامرأة كانت تعرف الحب. لم تعد تتحدث كما السابق. صوتها خفيض، ممزق، كأن كل كلمة تخرج من بين شقوق روحها. تسأل الناس بكلمات مكررة: ما رأيتم صغاري؟ سوف يعودون، أليس كذلك؟

لا أحد يجيب بصدق. بعضهم يواسي، بعضهم يهرب، وبعضهم فقط يصمت، لأنهم لا يعرفون كيف يُخبرون أمًا أن الله اختبر صبرها أكثر من اللازم.

في النهار، كانت تجوب الطرقات الرملية حافية القدمين، تمر على كل زقاق، تتأمل وجوه الأطفال، تبكي حين ترى طفلاً بعيني سالم، أو خطوات ناصر. الريح التي تمر كانت تحمل في أذنيها صوتهما، أو هكذا كانت تظن. تجلس تحت النخلة العجوز أمام بيتها، تحفر الرمل بأصابعها، كأنها تبحث عن جسدين صغيرين دفنها القدر.

في الليل... الخرخير تنام، لكن جورية لا تنام.

تجلس أمام البيت الطيني، في نفس الموضع ثوبها مغبرّ، عباءتها منزاحة عن كتفها، وشعرها لم يُمشّط منذ أيام. عينها على الطريق، تنظر لها طويلًا، تغني... نفس التهويدة التي كانت تغنيها لهما وقت النوم.

ثم تسكت تبتسم... ثم تبكي.

لم تعد تغتسل، لم تعد تصلّي كل الفروض. كانت تؤنب نفسها بعد ذلك، تبكي، ثم تغفو على التراب، ثم تستيقظ مذنبة، كأنها تؤمن بأن فقدان الولدين عقوبة، وأنها لا تستحق أن تُغفر

لها حتى يعودا إليها. تجلس أمام التنور البارد، تضع فيه حفنة طحين كل صباح، ولا تُشعل النار. النساء حاولن مساعدتها، لكنها كانت تنفر من كل المساعدات.

في يوم، رأوها تمشي بثوب النوم، تطرق باب أحد البيوت، وعندما فُتح، قالت:
"أنا جورية... أم ناصر وسالم... هم هنا، صح؟"
ثم انهارت. سقطت على الأرض، وذراعاها مفتوحتان كمن ينتظران طفلين يركضان إليهما.

الخرخير... كلها تعرف جورية
لا أحد يضحك عليها. لا أحد يسخر.
لأن الكل يعرف أن من تحوّل عقلها إلى تيه... كانت يومًا قلبًا كاملًا.

وفي كل يوم، عند الغروب، تجلس أمام البيت الطيني، وعينها على الأفق
لا تتكلم. فقط تبتسم تارة، وتبكي تارة أخرى.

رسول إلى الخرخير

كانت شمس العبيلة تنحدر نحو المغيب، الأفق مائلٌ إلى الحمرة، والريح تعبث بشعيرات بلال المنفلتة على جبينه. خطواته صارت أثقل، لكنّ عينيه استعادت الصلابة القديمة، كأن شيئًا فيه قرر أخيرًا أن ينهض، أن يحمل همه وهمّ غيره.

دخل إلى بيت الشيخ البرغوثي، الرجل الطاعن في الحكمة، الذي يعرف أن الصمت أحيانًا أبلغ من مئة قرار. جلس بلال بعد أن حيّاه، ثم قال دون مقدمات: شيخنا... لي عندك طلب، وقلبي عليه رهان. الشيخ أشار له بالجلوس، ثم قال: قل، فالرجال تُعرف وقت الحيرة.

تنهد بلال، ثم أكمل: أريد أن نرسل رسولًا إلى الخرخير... رجلًا قويًّا، يعرف الطرق، لا تضيّعه الرمال. ليس لأجل تجارة، ولا لقافلة... بل لأجل امرأة تُدعى جورية.

رفع الشيخ حاجبيه، ولم يقاطعه.

جورية... أم سالم وناصر. هما الآن في رحلة مع قافلة ماجد قلت لي، والمرأة هناك، تنتظرهم حتى خارت. بلغني عن طريق عجوز مرت من عندنا قبل أيام، أنها تسأل عنهم، تمشي حافية، لا تأكل، ولا تُصلي أحيانًا.

صمت الشيخ طويلًا... ثم قال

"والذي يريد إرسال الخبر... أنت؟"

"نعم، أنا"

"والذي سيكلّف الثمن إن تأخّر الرسول أو تاه... أنت؟"

"نعم، أنا"

ابتسم الشيخ ابتسامة خفيفة فيها حزن وفخر، ثم قال: إذن قد كبرت يا بلال... ليس بالعمر، بل بالوجع.

في تلك الليلة، جمع الشيخ ثلاثة من رجال العبيلة المعروفين بجرأتهم على الطرق: راشد، وسعد، وصبّاح. شرح لهم المهمة، وبيّن لهم الطريق، ثم قال: واحد منكم فقط يذهب، والباقون يعينوه حتى مشارف الوادي... بعدها، يُكمل وحده.
اختاروا راشد، أطولهم صبرًا، وأكثرهم صمتًا، رجل لا يكثر الكلام، لكنه إذا وعد، عاد بالوعد أو دفنه معه.

في فجر اليوم التالي، خرج راشد، يحمل في قلبه رسالة من بلال وشق طريقه عبر الوادي المنحدر. عاد الكردي بعد تيقنه من مسير راشد، وقف قرب نخلة جافة في طرف العبيلة، حدّق في السماء، وهمس:
يا رب... اجعل الطريق تُردّ، والقلوب تُشفى. ولا تجعل جورية تموت وهي تنظر نحو السراب.
ثم جلس، عيناه لم تعودا تبحثان عن سلوى فقط... بل عن رسالة رجعٍ أيضًا... من الخرخير إلى العبيلة.

سلوى آنذاك واقفة تحت ظلّ السور الطيني قرب البئر، تبدو وكأنها تنتظر ماءً، لكنها في الحقيقة تنتظر شيئًا آخر، ربما صوتًا، خطوة مألوفة، أو حتى مجرد طرف عينٍ يلتفت. مرت أيام وهي لا تكلّمه، أيام من التجاهل الصامت، من الكبرياء المحروق، من الحزن الذي ينضج على مهل. لكن قلبها كان يسبقها دائمًا إلى حيث يقف بلال. كلما رأته يتحرك في الساحة، يساعد الشيخ، أو يحفر، أو يناقش الرجال، كانت عيناها تسرق منه لمحة، وفي

كل مرة، كانت تقول لنفسها:
"يبدو جميلًا وهو يشتغل"

في المساء، انحنى بلال قليلًا ليمسح العرق من جبينه، رمقها بطرف عينه. نظرة لم تكن طويلة، لكنها أحرقت كل كبريائها دفعة واحدة. شعرت سلوى بأن الأرض اهتزّت تحت قدميها، كأن كل الليالي التي نامت فيها غاضبة... ذابت في رمشه واحدة. لكنها تماسكت، أعادت عينيها إلى الأرض، كأنها تقول لنفسها:
"لا، لا تتعلقي بنظرة... ربما كانت صدفة"
لكن بلال... لم يجعلها صدفة خطا ببطء نحوها، صوته لم يخرج، لكنه كان يقترب... يقرب المسافة التي ظلّت باردة لأيام. خطوة... ثم ثانية... حتى صار أمامها.
كانت تُحدّق في الأرض، أناملها تعبث بثوبها بقلق، أنفاسها سريعة، لكنها تحاول أن تبدو ثابتة. أما بلال، فوقف بصمت، ثم قال بصوت خافت:
"...سلوى بالله عليك كلميني"
لم ترد، لكن قلبها قفز
أعاد النداء، بصوت أخف:
"سلوى... ما عاد فيّ طاقة للسكوت"
رفعت عينيها إليه، دمعة صغيرة تكونت، لكنها لم تسقط... ثم قالت، بصوت محشوّ بالحزن
"...أنا لم أغضب أنك لم تذكرني"
اقترب خطوة، كأن المسافة بينهما كانت تحتاج لهذا الاعتراف كي تزول قال:
أعرف... لكن قلبي وقتها كان مشغولًا بشيء لم أقدر أفهمه إلا متأخر. كنت أهرب من حزني، لا منك.
سكتا... فلا شيء يُقال بعد الحقيقة.

ثم قالت:

"والآن؟"

قال:

الآن... لا أهرب. ولا أطلب شيئًا. فقط جئت أقول... إنك ما كنتِ بعيدة عن قلبي، حتى لو ابتعدتِ عن عيني.

دمعتاها انسلتا بهدوء، نظرت إليه لدقيقة كاملة دون أن تقول شيئًا، ابتسمت بطرف شفتاها، ثم استدارت، مشت قليلًا وخطواته وراءها لم تتركها لحظة حتى وصلت البيت.

فتحت الباب، ونظرت إليه، كأنها تقول له شيئًا هو وحده الذي سيفهم.

في الداخل، جلست على الحصير المطرز، بعدما أوصدت الباب، والقلب أخيرًا تنفّس الصدق. بلال، ظل واقفًا للحظات، ثم ابتسم... وطرق الباب بخفة.

طقس قديم

لم يكن بين سلوى وبلال كلمات كثيرة في الماضي حين كانا يختلفان، حين كانت نظرة منه تُغضبها، أو كلمة منها تُربكه، لم يكونا بحاجة إلى شرحٍ طويل، أو رسائل مكتوبة، أو حتى اعتذارٍ مباشر. كانت بينهما لغة لا يتكلمها غيرهما، لغة تتجلى في التفاصيل الصغيرة... التي لا يراها أحد.

حين تغضب سلوى، لا تصرخ، لا تهدد، لا تبكي بصوت، بل تفعل شيئًا أقوى من كل ذلك: تخرج إليه، تقف أمامه، دقيقة واحدة... لا أكثر، لا أقل. لا تتكلم، لا تنظر حتى... فقط تقف. بلال كان يفهم. دائمًا يفهم. يعرف أن هذه الدقيقة هي استدعاء الصلح، نداء بلا صوت، رسالة من قلب يعرف تمامًا أين كان الخطأ، وأين يكون التصحيح. ثم... تستدير. تمشي نحو البيت بهدوء. عيناها على الأرض، لكنها تعرف أنه خلفها. خطواته لا تُسمع، لكنها تحسّها. تصل إلى الباب، تفتحه، ثم تستدير للحظة وتنظر إليه، وكأنها تقول:

"إذا تبعتني، سأغفر... وإذا توقفت، سأغلق الباب وأبكي دون دموع"

بلال لم يكن يومًا يتأخر. دائمًا، يمشي خلفها بنفس الخطى، كأنه يعرف أن الرجوع إليها أهم من كل الاعتذارات. ثم تدخل، تغلق الباب بلطف، لكن تترك له دقيقة واحدة، دقيقة لا أكثر وهو؟ لا يحتاج أكثر من عشر ثوانٍ ليطرق الباب.

مرت السنون، وتكاثرت القوافل والتيه والمواجع، لكن ذلك الطقس الصغير... بقي

حين وقفت سلوى أمامه اليوم، بعد زمنٍ من الصمت، لم تفعل شيئًا جديدًا فقط أعادت ما كان: وقفت دقيقة، ثم مشت، ثم نظرت، ثم دخلت وأغلقت الباب.

وبلال؟ كأن قلبه تذكّر الطريق القديم، كأن خطواته كانت تمشي عليه منذ البداية.

انتظر، لم تمر الدقيقة، حتى طرقت يده الباب، كما كانت تفعل دومًا. طرقة واحدة، لكنها

كانت كفيلة أن تعيد لهما البيت، والحب، والذكرى.
كانت أم سلوى هناء في المطبخ الطيني، جالسة على الأرض، تعجن الرغيف، أصابعها مبللة بالماء والدقيق، ورائحتها تعبق في البيت. لكن قلبها في مكان آخر، في البهو، عند الباب.
سمعت الخطى، لم تكن ثقيلة، لكنها مألوفة سمعت الباب يُفتح، ثم يُغلق بهدوء سمعت الصمت الذي تلا المشي ثم... طرقة واحدة رفعت رأسها فورًا، عينها اتّسعت، ثم أغمضتها في تنهيدة خفيفة ابتسمت، ثم قالت بصوت لم يسمعه أحد:
رجع الطقس... بعد كل السنين، رجع.
كانت تعرفه هذا الطقس. شهدته عشرات المرات حين كانا أصغر، منذ ان كانت سلوى في الثالثة عشر، وبلال يافعًا لا يعرف كيف يعتذر، لكن قلبه كان دومًا أقوى من لسانه. كانت الأم تُراقبهما من بعيد، وتقول في نفسها:
الحب لا يحتاج كلام... يحتاج حفظ للعادات، وصدق في التكرار.
الآن، وهي تسمع نفس الطرقة، تشعر أن البيت تنفّس مجددًا، أن الحطب سيشتعل الليلة ليس فقط في التنور، بل في صدورٍ ظلّت باردة طويلًا. لم تقترب... لم تفتح الباب بل أكملت عجنها، لكن بعينين دامعتين، وابتسامة أم تعرف أن قلب ابنتها عاد يخفق ثم همست للعجين:
"الرغيف اليوم... له طعم مختلف"

مرت دقائق داخل البيت لم تُقَل فيها كلمات كثيرة، لكن كل شيء بدا كأنه يقول: عاد ما كان يجب ألا يرحل.
جلس بلال في مواجهة سلوى، صوته لا يزال خافتًا، ونظراته تختلس الطريق إلى عينيها، كمن يخشى أن يتبخر هذا السلام إن بالغ في لمسه. قال بعد لحظة:

كنت أظن أن البعد سيصلح ما فيّ، لكنه فقط زادني وجعًا، وزادك صمتًا.
أجابت سلوى، بنبرة لا عتاب فيها بل صفاء:
لم أكن أريدك أن تبرر، فقط أردتُ أن تعود، أن تطرق الباب كما كنا نفعل... حين كنا لا نحسن التعبير، لكن نحسن الشعور.
نظر بلال إلى يدها الممدودة، ثم وضع يده فوقها، بحذر يشبه خوف من فقد التوازن بعد ركض طويل. قال بصوت أقرب إلى الهمس:
هل نحن متأخران؟"
لم تجب، فقط ابتسمت ابتسامة خافتة وصمتت. بلال لم يرفع يده، كان يراقب أناملها الصغيرة تتحرّك بخفة تحت راحته، وكأنها تقول له:
"لا تطل الكلام... فقط ابقَ"
قال أخيرًا، وعيناه على تلك الحركة البسيطة: حين كنت بعيدًا، كل شيء بدا ناقصًا... حتى اسمي، كنتُ أكتبه في الرمال وأمحو جزءًا منه، كأنني لا أكتمل إلا بك.
ضحكت سلوى بخفة، تلك الضحكة التي كانت تطل من عينيها قبل فمها، ثم قالت:
وهل كنت تظن أنك وحدك من يشعر بالنقص؟
أنا كنت أرتب فراشك كل ليلة، وأحكي لنفسي أنك تأخرت فقط، ولم تغب.
ابتسم، ثم قال بهدوء:
"كنت أبحث عني... فوجدتك"
سكتا، وفي الخلف، كانت أم سلوى تضع الرغيف في التنور، تسمع كلماتهما من خلف الجدار الطيني، وتنظر إلى النار وهي تتوهج، ثم تقول في سرّها:
"القلوب الطيبة، حتى لو تاهت... تعرف كيف تعود"
في الخارج، كان الليل يتمدد فوق العبيلة، نجمة تسقط، وسكون يسود، وفي بيت سلوى...

لم تكن هناك حاجة لاعتذارات، فالمصالحة كانت تجلس بينهما، تبتسم، وتقول:
"كل ما فات... صار ماضيًا يُغفر"

في تلك الليلة، بعد أن عاد بلال لبيت الشيخ محمد، جلس في فناء صغير قرب النخلة اليابسة، كان وحده، يحمل بين يديه كوبًا من الشاي البارد، لكنه لم يشرب. كانت عيناه على السماء، لكن قلبه كان في مكانين عند سلوى... وعند الشيخ محمد.
همس لنفسه: كيف أقول لها: أحبك، بينما صوت الشيخ لا يغيب عن رأسي، وهو يضع يده على كتفي ذات يوم ويقول:
"أنت واحدٌ من أولادي، يا بلال"
شدّ على قبضته، كأنّه يقاوم ضعفًا لا يريد أن يعلنه أنا لا أخاف من الحب، لكني أخاف من أن أضع فيه خيانة لرجلٍ علّمني الرجولة. أما سلوى، فقد شعرت بما لم يُقال رأت في عينيه تلك الليلة شيئًا مختلفًا... نظرة مشتعلة، لكنها محاطة بسور. قالت في سرّها، وهي ترتب وسادتها:
يحبني... أعرف. لكن شيئًا في داخله يمنعه من التقدم.
تنهّدت، ووضعت يدها على صدرها، ثم همست:
أحبك، بلال... حتى لو لم تقلها. وحتى لو اخترت أن تبقى صامتًا، يكفيني أنك تحبني من بعيد... دون أن تؤذي ثقة من أحببتَه قبلي.
استيقظ بلال مبكرًا في الصباح التالي، خرج ليساعد في تنظيف طريق البئر من الأعشاب، كأنّه يحاول أن ينظف قلبه بالعمل وحين مرّ قرب البيت، رآها من بعيد، تقف خلف الستار، تراقبه لم يلوّح لها، لكنه أبطأ خطاه قليلًا، كأنّه يقول:
أنا هنا، لكني... أتعلم كيف أحبك بشرف.

واخيرا العويصي

بعد عشرة أيام من المشي بين كثبان الرمل، تحت شمس حارقة لا ترحم، ومساحات لا تنتهي من الصمت والرمال، كان كل يوم يزداد ثقلًا على أكتافهم، لكن شيئًا ما في أعماقهم دفعهم للاستمرار، هو ذلك الوعد الخفي، أو ربما الخوف من المجهول.

في الصباح الأخير، بينما كانت الشمس تكاد تلامس الأفق، وقفوا على قمة كثيب رملي عالٍ، والعيون ترقب الأفق البعيد بترقبٍ ممزوج بالخوف والأمل. هناك، على بُعد خطوات، بدت العُويصي، قرية تلوح في الأفق كسرابٍ غامض، بناياتها مائلة، وأبوابها مفتوحة على مصراعيها، تغطيها نباتات صفراء ناشفة، وكأن الطبيعة نفسها تخلّت عنها.

صمتٌ خيّم على القافلة، كأنّهم يعترفون بأنهم أمام نهاية الطريق، أو ربما بداية مواجهة حقيقية مع ما يختبئ في ذاكرة العُويصي. تبادلوا النظرات، وارتفع صوت سالم بهمس: وأخيرًا؟ و هو لا يدري ان الان اصبح الطريق الى امه اكثر بعدا و اكثر تيها.

خطواتهم الأولى داخل العُويصي كانت كالخطوة الأولى في حلم طويل، حيث تبدو الجدران صامتة، لكن الأبواب المفتوحة تُهمس بقصص منسية، والريح تمرّ بينها كأنها تردد أنين ماضٍ بعيد.

عند دخولهم العُويصي، اتّجه الأربعة بثقل الخطى نحو بيت ماجد، البيت الذي كان يومًا ملاذه، وذكريات طفولته تنسج جدرانه. لكن ماجد لم يكن يسير فقط بين الحيطان والأبواب، بل كان يمشي وسط بحرٍ من المشاعر المختلطة: خوف، أمل، حزن، وحنين. في قلبه، كان هناك سؤال واحد يُلهبه: هل ما تزال أمه على قيد الحياة؟

كانت مريضة، وقبل رحيله بعشرة أشهر، تركها وحيدة، يحاول أن يجلب المؤونة والأمان، لكنه لم يعد إليها منذ ذلك الحين. الظنون كانت تخنقه، والليل كان يزداد طولًا في عينيه، كل

خطوة تقترب به من البيت كانت تزيد من ترددات، كأن كل جدار وكل باب قد يحمل له خبرًا يغيّر حياته. بينما هم يقتربون، كان صمت العُويصي يضغط على صدره، وكأن المكان بأسره يترقب ما سيحدث. رغم حضور رفاقه بجانبه، إلا أن خوف ماجد كان وحيدًا، خوف الطفل الذي لم يزل يملأ قلبه بالرغبة في رؤية أمه. عندما وقف أمام الباب الخشبي، قبض يديه بقوة، ثم طرق الباب ببطء، كأنه يطرق قلبه المكسور انتظر... لكن لا صوت، لا حركة. دفع الباب برفق، فوجد البيت مظلمًا، خاليًا، لكن كان هناك شيء في الزاوية، شكل خافت، امرأة مسنة تجلس بهدوء. حدقت فيه بعينين تعبيريتين، ثم قالت بصوتٍ خافت، لكنه مليء بالحب والانتظار:

"رجعت...؟"

انفجر ماجد بالبكاء، ركض نحوها، واحتضنها، وجدها ليست كما تذكرها تمامًا، لكنها كانت هناك... حية.

جلس منعم تحت ظل النخلة اليابسة، يسند ظهره إلى جذعها الخشن، يحمل كوب الماء بيد ويحدّق في الأفق الذي بدأ يتلاشى فيه ضوء الغروب. رغم التعب الذي يثقل جسده، كانت ذاكرته تسرح إلى مكان آخر، إلى وجه امرأةٍ كانت دائمًا حاضرة في قلبه: شادية.

تذكر خطواتها الهادئة، صوتها الذي يلامس روحه، ابتسامتها التي كانت تكسر صمت الأيام، وكأنها كانت في قلبه رغم بعد المسافات. وحين رأى خيالاتها في العُويصي، تردد للحظة، كأنها تذكره بأن هناك شيئًا ما لم يُغلق بعد، شيئًا يحتاج إلى نهاية، أو بداية جديدة.

همس في نفسه: شادية... كم تمنيت أن أعود إليك قبل كل شيء، لكن الطريق يدعوني إلى الشامان، حيث زوجتي وبناتي، حيث الحياة التي يجب أن أبنيها. تنهد عميقًا، وشرب من الماء البارد، ثم جمع قواه راسل قلبه ليكون قويًا، ففي الطريق غدا ينتظره حبٌ آخر، ومسؤولية أكبر. لكن في زوايا قلبه، ستظل شادية ذكرى لا تُنسى، وكأنها نغمة حزينة في

لحن حياته.

وقف ماجد أمام أمه جميلة، نظر إلى عينيها بحنان، ثم قال بصوت هادئ: يا أمي، هذان فتيان وجدانهما تائهة، حاملا معهما مشقة الطريق وأثقال الغربة، أحتاج منك أن تكوني لهم الأم، والملاذ، فالبيت لا يكتمل إلا بوجود قلبك الكبير.

جميلة ابتسمت ابتسامة ضعيفة لكنها صادقة، رفعت يدها مرتعشة، ولمست وجهيهما برقة، كأنها تقول لهما: أنتم الآن في بيتكم، لن تضلوا بعد اليوم. نظر سالم وناصر إلى ماجد بشكر، وشعروا في حضن تلك العجوز الهشة دفء لم يعرفوه منذ زمن.

حلّت الظلمة على اليوم الاول في العُويصي، والنجوم تلمع في سماءٍ صافية، لكن داخل البيت الطيني القديم، كانت هناك دفء يخترق برودة الليل. جلس سالم وناصر جنبًا إلى جنب، يتبادلان نظرات مترددة، بعد يوم طويل من السفر، ملامح التعب واضحة على وجوههما، لكن بين جدران ذلك البيت، شعروا لأول مرة منذ زمن بأمانٍ خافت. جميلة، جلبت لهم بطانية قديمة، لفّاها حول أكتافهما، وربّتت على رأس سالم برقة.

في ركن من البيت، وعلى حصير بسيط، تجمعوا معًا، الحرارة البسيطة التي تصدر من التنور كانت تكفي لتبدد بعضًا من برد الرحلة، لكن ما كان أكثر دفئًا، هو حضور تلك الأم التي لم تملك الكثير، إلا قلبًا مفتوحًا، وابتسامة تذوب فيها كل المخاوف.

قبل أن يناموا، سمع سالم همسات جميلة تروي حكايات قديمة، عن أرض السلام، وعن الأمل الذي لا يموت، وعن الرحلات التي تنتهي دومًا بالعودة إلى البيت.

نام سالم وناصر، والأحلام تنسج لهم طريقًا جديدًا، حيث لا تشتد الرياح، ولا يُضيع السائرون الطريق.

في تلك اللحظة، كان البيت ليس فقط مأوى للجسد، بل ملجأ للقلوب التي تعبت من التيه.

من الذاكرة-عبير بنت امينة

بعد يومين في العويصي وفي صباحٍ مشرق من صباحاته، استيقظ منعم باكرًا، الهواء نديّ، والسماء بلون أزرق شاحب يوشك أن يشتعل بشمس الصحراء. جهّز لوازمه بصمت، ربط حقيبته بإحكام على ظهر جمله، كان في قلبه شيء من الحنين. ودّع ماجد بحرارة الأخ الذي وجد فيه سندًا، ومسح على رأس ناصر وسالم، وقال لهما بابتسامة دافئة: ابقيا بخير... واذكُراني إن مررتم بالشامان.

ثم ركب جمله، ولوّح بيده لحظة، ورحل عن صحبةٍ صارت تشبه العائلة، رفقة تشكّلت من تعب الطريق، وصدق القلوب، لكنها الآن تُترك خلفه، ففي الشامان، ثمة قلب ينتظر، وبناتٌ ثلاث ينتظرن صوته، خطاه، ودفء حضنه.

بعد أن غاب غبار الجمل في الأفق، عاد ماجد وجميلة إلى داخل البيت، جلسا في فناء بسيط تحيطه جدران الطين والنخيل اليابسة. وضعت يديها في حجرها، نظرت بعيدًا، ثم قالت، كأنها تسترجع شيئًا لا يريد أن يُنسى: "تدري يا بني... كانت بنت جيراننا، عبير، تأتيني كل صباح، قبل طلوع الشمس، تجلب لي الماء، وتغسل لي الثياب، تحمل في يدها خبزًا، وفي قلبها طيبةً ما شفت مثلها. ما كانت تتأفف، وما كانت تغيب، كنت أقول في نفسي: لماذا تهتم بي هكذا؟ لكنها كانت صامتة دومًا، تشتغل... وتسكت.

كانت تحبك يا ماجد... ما قالت، ولا أنا فهمت وقتها، لكن اليوم، وأنا أتذكّر نظرتها... فهمت كل شيء. ماجد ظلّ ساكتًا، عينيه على الأرض، لا يعرف ماذا يقول، كأن شيئًا داخله اهتز، هل كان أعمى عن ذلك الحب؟ وكيف كانت تحبه وهو أكثر من سنة لم يرها؟ وبينما كانت جميلة تُكمل حديثها عن عبير، وصوتها مبحوح كمن يحفر في الذاكرة، قاطع السكون طرقة على الباب.

رفع ماجد رأسه، تردد لحظة، ثم قام ببطء، وتقدّم نحو الباب الطيني الذي أكلته الشمس والريح، فتحه دون توقعات... فإذا بها عبير.

لم يتكلم، فالعينان وحدهما تكفّلتا بالباقي. لحظة توقّف فيها الهواء، وسكتت فيه الأرض، وحتى صوت جميلة انقطع كأن الزمن تجمّد عند العتبة. عبير... كانت تقف بهدوء، كمن حضّر نفسه كثيرًا لهذا اللقاء، لكن المفاجأة ظلّت أقوى من التمرين. هي ليست كما تركها آخر مرة، ولا كما تخيّلها في وصف أمه.

إنها أجمل من الذاكرة. فتاة شقراء، شعرها مائل إلى الذهب، لكنه ليس ناعمًا كخيوط القطن، بل مموجًا، تعب فيه الهواء كما تعب الزمن، منسدلًا على كتفيها كأمواج رملية تهبّ في صمت. بشرتها بلون القمح حين ينضج، نضرة كأنها تروت من ندى الصباح، وفي وجهها تلك السكينة النادرة التي لا تُشترى. عيناها؟ عسليتان، ليستا داكنتين ولا فاتحتين، بل فيهما تدرّج كأن داخلهما صحاري، حين تنظر، تشعر أن الوقت يبطؤ، وأنك ترى في عينيها شيئًا لم يُحكَ. رموشها طويلة، تتحرك بخجل حين ترمش، وكل رمشه فيها سؤال لم يُسأل... واعتراف لم يُقال. ثوبها بسيط، بلون الرمل، مطرّز عند الحواف بخيوط يدويّة، وفي يدها سلة صغيرة من خوص، فيها تمر وخبز، وربما شيء من التوتر الذي خبأته في ابتسامتها.

وقفت... ثم قالت بصوت خافت فيه رجفة: صباح الخير... خالة جميلة موجودة؟

جميلة من الداخل رفعت رأسها، ونادت بصوت متقطّع من الدهشة: عبير؟ يا بنت أمينة؟

قالت عبير وهي تبتسم بحياء: أجل يا خالة.

ماجد لم يرد... فقد كانت الكلمات قد خانته، وما عاد يعرف إن كان يقف أمام بنت الجيران، أم أمام سؤالٍ قديم... يعود ليفتح أبوابه. في تلك اللحظة، حين وقفت عبير على الباب، وحين ارتفع صوت أمه من الداخل لم يكن صوت جميلة وحده ما سُمع... بل انفتح باب في ذاكرة ماجد، باب كان مغلقًا منذ سنين، غبار الزمن يغطي عتبته، وحين فُتح، خرجت منه

رائحة طفولة، وصوت خافت، ولهجة لا تُنسى. تذكّرها... تلك الطفلة الصغيرة، بعمر العاشرة، نحيلة، بشعرٍ فوضويٍّ مضفورٍ بشريط ورديّ، تأتي راكضة، بثوب خفيف يتطاير حول ركبتيها، تقف تحت شرفة بيتهم، وترفع رأسها عاليًا، ثم تصيح بصوتٍ فيه من البراءة ما يذيب الحجر: "خالة جميلة... أمي تريد القليل من الملح!" وكانت دائمًا، تُطيل المدّ في كلمة "الملح" كأنها تجهل أنه طلب بسيط، فتجعله أغنية صغيرة تملأ الساحة.

جميلة، من فوق، كانت تبتسم، وترد عليها بنفس الحنان في كل مرة: دقيقة يا عبير، لا تتحركي. وماجد؟ كان يراقبها من خلف الباب المفتوح نصف فتحة، لا يتكلم، فقط يرى تلك الطفلة التي تُكلم أمه بثقة، تأخذ الملح في كفٍّ صغيرة، وتعود تركض، ثم تلتفت فجأة، وتلوّح بيدها لماجد — حتى إن لم يكن ظاهرًا — لأنها كانت تعرف أنه يراقب. تذكّر مرة رآها تبكي... حين وقعت وسال دمٌ من ركبتها، وجاءت خجلة، تخفي دموعها، وقالت لأمه بصوت مرتجف: خالة جميلة... ماما مشغولة... سقطت في العتبة.

وحين جلستها أمه، وضمدت ركبتها، بقي هو في الداخل، قلبه يضج بشيء لا يفهمه، غضب لأن أحدًا آذاها... حتى لو كان حجرًا صغيرًا. الآن، وهي واقفة عند الباب، لم تعد تلك الطفلة، لكن في عينيها... في وقفتها، في سكونها، شيء من عبير القديمة لا يزال حيًّا. تلك الطفلة التي كانت تطرق الباب لتطلب "ملحًا"، تعود الآن دون أن تطلب شيئًا، فقط تطلب الحضور. كأن بين يدين ماجد كل ملامح طفولته تتجسد فجأة، تنبض أمامه، وتقول له: عبير لم تكن أبدًا فتاة الجيران فقط... بل كانت صوتًا صغيرًا، يربطك بالبيت، بالزمن، وبنفسك والاقوى من ذلك بأمك.

عاد من غفوته في الذاكرة على وقع صوت أمه، صوتها ما زال دافئًا رغم تعب السنين، لكن فيه الآن شيء من الفرح، شيء من الحنين القديم حين قالت: ادخلي يا عبير، البيت بيتك يا بنت أمينة.

كان الصوت كجسرٍ أعاد عبير من عتبة الانتظار إلى الداخل، ورجّ ماجد رجًّا ليعود من صور الماضي إلى اللحظة. رمش بعينيه مرتين، كأنّه يطرد الغبار الذي تراكم فجأة على واقعه، تراجع خطوة ليترك لها المجال، فدخلت بخطى مترددة، عينُها تأخذ تفاصيل ماجد كما لو كانت تسجّل حضورها في وجه اشتاقت له دون اعتراف.

الضوء الطيني للغرفة بدا أكثر نعومة بوجودها، وصوت ثوبها وهي تتحرك بهدوء فوق الأرض كأنّه عزفٌ خافت، سحبتها جميلة برفق لتجلس قربها، ثم قالت وهي تضحك: كبرتي يا عبير... وصار لك ظلّ أطول من ظلّ الباب نفسه. عبير ضحكت بخجل. أما ماجد، فجلس في الزاوية، يحاول أن يبدو طبيعيًا، لكن قلبه لا يزال يضطرب من صوتها، من حضورها، من تلك المسافة الصغيرة التي لم يعد يعرف إن كانت مسافة جسد... أم مسافة شعور.

تبادلوا بعض الأحاديث العابرة، عن الجيران، وعن فواز – والد عبير – رحمه الله، عن زمنٍ مضى كأنه لم يذهب، وكانت نظرات ماجد تختلس المرور على عبير بين حين وآخر، وفي كل مرة... كانت عينيها تلتقي بعينيه للحظة، ثم تفرّ.

في الساحة امام البيت، وتحت ظل نخلة شاحبة، ناصر وسالم ضحكاتهم تتردد في المكان كأنها تنفض عنه غبار الغربة. ناصر، بشغفه الطفولي، يجري خلف كرة مصنوعة من القماش القديم، يسقط، ينهض، يركض، تتبعثر ضحكاته كما لو كانت زهورًا تُنثر في الهواء.

سالم، على خلافه، كان أكثر سكونًا، يجلس أولًا على صخرة عند الحائط، يراقب، يبتسم أحيانًا، لكن عينيه تحملان بريق الحذر، كأن قلبه لم يعتد بعدُ على الشعور بالأمان.

اقترب منه أحد الأطفال، وقال بلطف: ما اسمك؟

أجابه سالم: اسمي سالم.

ابتسم الطفل وقال: هل ترغب أن تلعب معنا؟

نظر سالم ناحية ناصر، الذي كان يدور مع بقية الأطفال في دائرة من الضحك والحركة، ثم هزّ رأسه بخفة، وقام من مكانه، قال بصوت خافت: نعم... قليلاً فقط.

ركض باتجاههم، بخطى مترددة أولًا، ثم انطلق بحرية، كأن روحه بدأت تنفض عنها ما علق بها من التيه والخوف.

جورية... انتظار بلا رجوع

في ظهيرة اليوم التالي، بينما كانت العبيلة تغفو تحت حرارة الشمس، سُمع صوتُ خيولٍ يقترب من بوابة الساحة. خرج بلال من بين ظلال النخيل، وقد تجمّع رجال العبيلة، وعلى رؤوسهم الشيخ محمد.

راشد قد عاد.

كان وجهه متعبًا، مغبرًّا، لكن عينيه تلمعان بوميض رسالة نُقلت، وضمير أُنجز. ترجّل عن فرسه، وسار نحو الشيخ، سأل الشيخ بهدوء:

"هل وصلت الرسالة؟"

أومأ راشد، ثم قال:

"تأخرنا يا شيخ... تأخرنا"

رفع الشيخ عينيه إليه، لم يسأله، كأنه يعرف لكن راشد أكمل، والوجع يتسرب من نبرته:

...لا أحد في قرية الخرخير نسي ذلك اليوم.

حين وجدوا جورية ممددة على حافة البئر القديمة، ثوبها الممزق مبلل، وخصلات شعرها الرمادي تنساب في الماء الراكد. لم تسقط، بل كانت مستلقية هناك، كأنها اختارت المكان الذي ظلّت تتردد عليه كل مساء، تسأل عن خبر، عن ظل، عن أثر.

كانت تجلس بجوار البئر كل يوم، تقول للأطفال إن صوت سالم سيخرج من الماء يومًا، وأن ناصر سيعود راكبًا على جملٍ أبيض. لكن لا أحد عاد، ولا صوت خرج من عمق البئر.

الناس كانوا قد اعتادوا رؤيتها، وحيدة، نحيلة، بثوبها الأسود البالي، تمشي حافية القدمين، تحمل كسرة خبز مبللة بالشاي، تضعها قرب الحافة، ثم تُصلي ركعتين، وتبكي.

وفي مساءٍ ثقيلٍ من مساءات الخرخير، حين افتقدتها جارتها، ذهبت تبحث. وما إن وصلت البئر، حتى رأتها، نائمة كأنها ترتاح من عمرٍ من الانتظار. جسدها بارد، ويدها لا تزال تمسك بوشاحٍ قديم، كان يخص ناصر، حين كان طفلًا. عينها مفتوحة نصف فتحة، كأنها كانت تنظر إلى السماء للمرة الأخيرة أو أنها كانت تتأمل الوجوه التي لم تأتِ.
جاء رجال القرية، وقفوا حولها صامتين لا أحد تجرأ على رفع صوت الحزن، فالصمت كان أبلغ جنازة لها. دفنوها قرب البئر وحفروا فوق قبرها
"جورية... التي انتظرت حتى الموت"

وقف بلال صامتًا، تستقر الكلمات في صدره كأحجار ثقيلة لا تكاد تنفذ. سمع راشد وهو يروي بصوتٍ كأنه يحاول كبت دموعه، تفاصيل الخبر. كل كلمة كانت كرمح يغرز في روحه، كل جملة تُثقل كاهله أكثر.
بلال يحاول أن يُمسك أنفاسه، لكن الحزن كان ينهش أعماقه بلا رحمة. تخيل صورة جورية، تلك المرأة التي كانت قلب الخرخير النابض، ترتعش أمام عينيه بلا حياة، ملقاة بجوار البئر التي طالما كانت تلتقط منه الأمل. شعوره كان مزيجًا من الألم والصدمة، كما لو أن جزءًا من روحه قد مات معها، وحين حاول أن يرد، تعثرت كلماته في حنجرة جافة، ولم يجرؤ على البوح بأي صوت. عيناه ترمقان الأفق، تبحث عن شيء بعيد، ربما عن بارقة أملٍ صغير، لكن في داخله كان يعلم، أن الغياب هذه المرة ليس كأي غياب،
أن جورية لن تعود،
وأن الخرخير فقدت دفئها الأبدي.

ومع كل ذلك، كان يعلم أن عليه أن يكون قويًا، لأجل سالم، لأجل ناصر، ولأجل ذلك الجرح الذي حمله في قلبه منذ اللحظة الأولى.

بعد أن قال بلال للشيخ إنه يحتاج إلى بعض الوقت ليجلس وحده، مشى متثاقل الخطى، يتجه نحو شجرة السدر العتيقة التي تقف صامدة في طرف العبيلة.

جلس تحت ظلها الوارف، كان الهواء يحمل نسائم خفيفة تمر بين أوراق الشجرة، لكنه لم يشعر بأي راحة.

في صمت المكان، تملك بلال شعورٌ بالثقل يضغط على صدره، والذكريات تلتف حوله كالأشواك. فجأة، لمح بين الظلال جسدًا مألوفًا، كانت سلوى جالسة هناك أيضًا، عيناها متجهتان إلى الأرض، نظر إليها بلال، ولم يقل شيئًا، لكن وجودها كان كفيلًا بأن يخفف عن قلبه بعضًا من ذلك الحمل الثقيل. حركت رأسها ببطء، ونظرت إليه، فالتقيا بعيني بعضهما، حيث كان الحزن والوداع يكمنان، لكن أيضًا بذرة من الأمل.

في تلك اللحظات، لم يكن هناك حاجة إلى كلمات، فقط صمتٌ مملأ بالفهم، ورفقة تشارك الألم.

في طريقٍ لا يشبه الطرق... وصل

بعد أيام من الترحال، وغبار التصق بروحه قبل ملابسه، وقف أيوب أخيرًا على تل يطل على "الروابي"، قرية صغيرة تسبح بين التلال كأنها خجلة من أن تكون مرئية. الشمس كانت تميل، والريح خفيفة، كأن الأرض تمسك أنفاسها بانتظار شيء. توقف قليلًا، أخذ نفسًا طويلًا، وحدّق بعينيه المرهقتين إلى التجمع الطيني الذي تكدست فيه البيوت، والنسوة يتحرّكن فيه مثل أطياف. همس: إن كانت هنا... فإني وصلت.

دخل السوق الصغير، حيث الباعة ينادون على بضاعتهم، وروائح البخور والعنبر تتسلل من تحت قباب القماش، تتراقص مع الغبار في الهواء. كان قلبه يدقّ كأن داخله طفل لا يعرف ما ينتظره. سأل عجوزًا يبيع التمر: امرأة اسمها سعاد... كانت مع الغجر، ومعها طفل يُدعى مالك هل رأيتهم؟

نظر إليه الرجل مليًا، ثم قال: "الغجرية سعاد؟ تقصد زوجة التاجر عبيد؟" كادت الأرض تميل تحته. "زوجة؟" أومأ العجوز: نعم، ومعها ولد. تبنّاه وسمّاه باسمه. تراجع أيوب خطوة إلى الوراء، ثم سار كأن أقدامه تتحرك من تلقاء نفسها. لم يشعر بالشارع، ولا بالناس، فقط صوت قلبه يرتطم بصدره، يضربه بقسوة: مالك... صار يُنادى باسم رجلٍ آخر.

وصل إلى البيت ذلك الكوخ المبني من القصب وقطع القماش المطرزة. أصبح الكوخ بيتا واسعا كأنهم اضافوا فيه بيوتا ثلاث او أكثر، وأمامه دكان يبيع العباءات المذهبة والبخور المستورد. كانت سعاد هناك، تقف خلف طاولة، شعرها مربوط بإحكام، وهي تساوم امرأة على عباءة. رآها...

فتوقف الزمن. هي نفسها، عيناها، قامتها، طريقة وقوفها... لكنها كانت مختلفة.

لم تكن تشبه تلك المرأة التي كانت تضحك معه تحت القمر، وتشرب الشاي على نار منسية في منتصف الصحراء. اقترب بخطى ثقيلة، وحين رفعت عينيها تلك العيون الواسعة السوداء سواد العتمة، تجمدت. لم تقل شيئًا. هو أيضًا لم يتكلم أول لحظة، ثم تمتم: "ظننتك ستنتظرينني..." أجابت بصوت خافت مشوب بالخوف:

ظننتك متّ.....

ضحك أيوب... ضحكة من لا يضحك. ثم اقترب منها وقال: متّ؟ أنا متّ ألف مرة وأنتِ السبب. حفرت الصخر بيدي، قطعت البلاد لأراكِ، وفي النهاية أجدكِ زوجة تاجر؟ زوجة رجل يبيع البخور والعباءات؟

نظرت خلفه، وقالت: لقد مرت سنوات ثلاث يا أيوب ما لك خبر ولا وصلتني مئونتك. ثم اضافت: لا تبقَ هنا... عبيد لا يحب الغرباء.
خرج رجل ضخم من الدكان. كانت ملامحه صارمة، وملابسه أنيقة تفوح منها رائحة العود الغالي. قال بعصبية وهو ينظر إلى سعاد: "من هذا؟" قالت: "دع الأمر لي، عبيد..." لكن أيوب صرخ: أنا والد الطفل الذي تناديه باسمك. أنا من وهبها الحياة حين كانت في العراء، ومن ترك قلبه في يدها كالأمانة. تقدم عبيد خطوة وقال بتهديد: ارحل قبل أن أطلب من الرجال أن يطردوك. اقترب أيوب أكثر، وكأن الحريق انفجر في عروقه: مدّ يدك... وستندم.

اندفع الرجال من السوق لإيقافها، وانفجرت فوضى. الطفل مالك خرج مذعورًا من داخل البيت، وبكى، ونادى: "ماما!" تجمد أيوب. الصوت... الصوت يشبهه. صوته. عيناه. كل ملامحه فيه. لكن الطفل خائف، لا يعرفه. وسعاد تهرع إليه وتحتضنه.

تراجع أيوب، وهو يلهث كمن خرج من عراك عمره سنوات. نظر إلى عبيد، وقال: سيأتي يوم، حين يكبر، ويسأل: من أنا؟ وسأكون هناك، في ذاكرته، ولو كظل. ثم نظر إلى سعاد: لم أطلب مالًا، ولا اعترافًا... لكن على الأقل، كوني صادقة معه. لا تكبريه على كذبة.
وبصوت مكسور: كان من الممكن أن أغفر لكِ كل شيء... إلا أنكِ جعلتِ ولدي يناديني غريبًا. ورحل. لكن هذه المرة، ليس بخطى منكسرة، بل بخطى رجل خاض معركته، وقال كلمته، وترك الجرح خلفه مفتوحًا... ليذكر الجميع أنه كان هنا.

عينا الطفل حملت شيئًا منه... نفس البريق، نفس اتساع الدهشة. لكن نظراته مرت على أيوب كما تمر على رجل مارّ في الطريق. لم يقل "أبي". وهذا وحده كسر في قلب أيوب شيئًا لا يُرمّم. كان يريد أن يركض إليه، أن يحتضنه، أن يبكي فوق كتفه ويقول له: "أنا الطريق الطويل الذي جئت منه." لكن الطفل التصق بأمه... لا به. خاف منه، كأنه لم يعرفه أبدًا.
عبيد... كان واقفًا خلفها، بملامح مشدودة، برائحة البخور والسلطة، ينظر إلى أيوب كما ينظر التاجر إلى عابر فقير لا يحق له أن يساوم. كان جامدًا، متماسكًا، لكن أيوب رأى في عينيه شيئًا آخر... رأى رجلاً لا يملكها... بل يخاف أن يفقدها. رأى رجلاً أخذ امرأة على أنقاض حب، وربّى طفلًا يعرف أنه ابن رجل آخر. رجل اشترى الأمان... لكنه لم يكسب القلب.
أيوب لم يكن يريد أن يصرخ، لكنه كان يمتلئ بالغضب، بالغدر، بالغصّة. أدار ظهره. ليس لأنه انتهى من الحديث... بل لأن الكلمات المتبقية أصبحت ثقيلة على قلبه أكثر من أن تُقال. الروابي انكمشت خلفه كجُرح لا يريد أن ينظر إليها، كأنها قرية لم يدخلها، وامرأة لم يعرفها، وطفل لم يكن منه. وحيدًا الليل كان يرافقه... يمشي إلى جانبه كظلّ لا يسأله شيئًا، ولا يواسيه، لكنه لا يتركه.

بعد يومين من المسير، وصل إلى العويصي قبيل الفجر. كان متعبًا، لكن التعب ليس من الطريق، بل من اللاجدوى، من الأسئلة التي لم تجد إجابة، ومن امرأة أحبّها حد التضحية... فاختارت غيره.

طرق الباب، فُتح بعد لحظات، ووقف ماجد أمامه. ماجد... الرجل الذي يعرفه منذ سنين، لكن علاقتهما كانت دائمًا على حافة الكسر: كثير الكلام، كثير النقد، لا يؤمن بالرومانسية ولا بالانتظار، لكن قلبه في مكانه، حتى لو غلفه بجدار من السخرية.

نظر إلى أيوب بنظرة طويلة، ثم قال بنبرة لا تخلو من لذعه: "آه... من ظن نفسه عنترة، ورجع بشعره مشعث وخيبته أعمق من البئر.

رد أيوب بصوت مبحوح: افتح لي الباب قبل أن أسقط، يا ابن الصحراء.

ضحك ماجد، تنحّى عن الباب، وقال: ادخل يا رجل القصائد والندم.

جلس أيوب على وسادة بالية، رمى جسده كمن يضع كل أثقاله في يد رجل لا يحبه، لكنه يثق أنه لن يتركه. أشعل ماجد نارًا صغيرة، وصبّ له الشاي، ثم جلس مقابلًا له وقال: هيا، فاجئني... هل وجدتها؟

سكت أيوب، ثم قال: وجدتها... لكنني لم أجدني معها.

رفع ماجد حاجبه: ومالك؟

همس أيوب: خرج إليّ، لكنه لم يعرفني.

هزّ ماجد رأسه، وقال: هكذا الدنيا يا صديقي، تعطيك ظلك حين تغيب الشمس، وتأخذ من تحب حين تظن أنك أمسكت به.

سكتا قليلًا، ثم تابع أيوب، كأن الحديث يخرج من أعماق قلبه لا من فمه: كان يمكن أن تكون عائلتي... هي، ومالك، وبيت بسيط في أي مكان. لكني عدت متأخرًا... والبيت بُني على اسم غيري.

قال ماجد دون أن ينظر إليه: لا تحزن على بيت لم يُبنَ على يديك. ابن بيتك هنا، في أي مكان، مع من يبقى حتى في غياب الحكاية.

رفع أيوب نظره إليه، وتأمل ملامحه القاسية ولغته الجافة، لكنه شعر لأول مرة أن الصدق لا يحتاج إلى عناق، يكفي أن يُقال.

قال ماجد وهو ينهض: نم الآن... وبعدها نتكلم عن كل شيء، عن المرأة التي نسيتك، والطفل الذي سيذكرك، وعنك أنت... وكيف ستبدأ من جديد.

وفي تلك الليلة، نام أيوب في بيت لا يحبه، بجوار رجل لا يشبهه، لكن قلبه أخيرًا... هدأ قليلاً.

قلوب تنزف في الشامان

كانت "الشامان" واحة لا تشبه غيرها... مخفية بين التلال، لا تصلها القوافل إلا إذا أضاعت الطريق أو أضاعتها الأيام. يُقال إن أهل الشامان لا يسألون من أين جئت، ولا يهمهم ما ضاع منك... بل فقط ما تبقّى معك لتبدأ من جديد.
حين وصل منعم، كان الغروب يرسم على الأرض ظلالًا طويلة، والهواء مشبعًا برائحة البرد والحنين. دخل الشامان مترددًا، فقد تركه يومًا على عجل، يبحث عن رزق، عن معنى، وترك خلفه زوجة وثلاث بنات. سنوات مرت...، لم يعد، لكنه لم ينسَ أبدًا تلك الليلة الأخيرة، حين كانت فاطمة تقف على عتبة البيت، تحمل رقيّة الرضيعة، وتسحب بيدها هالة، بينما كانت سلمى الكبرى تحدّق فيه بعينين تائهتين لا تصدّق الفراق.

دخل منعم البلدة بخطى بطيئة، كأن كل خطوة تحمل ثقل السنوات التي مضت. لم يكن يحمل شيئًا... إلا اسمه، ووجهًا تغيّرت ملامحه من التعب، وقلبًا لا يعرف هل سيُغفَر له أم يُغلق الباب في وجهه إلى الأبد. على عتبة البيت الطيني، وقفت فاطمة. امرأة لم تُعدّ العشاء منذ زمن كما كانت تفعل له، ولم تنم منذ سنوات على جهة القلب، لكنها لم تخلع حبّه من صدرها. رأته، وتجمّدت. ما قالت شيئًا، لكن يدها كانت ترتجف وهي تمسك بطرف عباءتها. اقترب منها منعم وقال بصوت مبحوح:
رجعت... لا بيدين ممتلئتين، ولا بوعودٍ، بس فقط برجليَّ... لأن ما بقي لي غير هذا الباب.

كانت فاطمة تنظر إليه نظرة لا هي غضب، ولا شوق، بل ذلك المزيج الثقيل من الحب المجروح والخذلان الطويل. خرجت من الدار سلمى، عيناها تشبهان أمّها، لكنها تنظر إلى أبيها كغريب. ثم ظهرت هالة، وراءها رقيّة، الصغيرة التي لم تعد صغيرة، لكنها كانت تمسك

بالدُمية كما تمسك الطفولة بما تبقّى لها من خيط ذاكرة.
قالت فاطمة أخيرًا:
أين كنت، يا منعم؟ أين كنت حين مرضت هالة؟ حين ضاعت رقية في السوق؟ حين بكت سلمى حتى نامت؟
سكت، ثم قال:
"كنتُ أبحث عن شيء لا أدري إن كان ضاع... أم أنا من ضعت"

نظرت إليه، ثم إلى بناتها، وقالت بهدوء دون دمعة واحدة:
"نحن لم نُغلق الباب، لكنه صار يئن كلما هبّت عليه الريح، من فرط الانتظار"

جلس على العتبة، ولم يُطلب منه الدخول، لكنه لم يُطرَد. وخرجت رقية وجلست قربه، مدّت له نصف رغيفٍ ناشف، وقالت:
"هذا ما عندنا"

ضحك منعم، دمعة خفيفة في عينه، وقال:
"وأنا ما عندي غير هذا الوجه... فهل تكفي قلوبكن أن تغفر له؟"

بين ضحكات الأطفال الذين يحوطونه كدوائر صغيرة من الفرح، وبين همسات زوجته فاطمة التي تسعى جاهدة لملء الفراغات التي تركها غيابه، كان منعم يقف وسط هذا المشهد وكأن قلبه محاصر بين دفتيّ ذكرى لا تهدأ. تغلغلت عيناه بعيدًا عن اللحظة، انغرزت في عالم آخر، عالم كان فيه وجه شادية ينبض بالحياة والأمل، لا بظل الغياب وأشباح الفراق. رأى شادية في تلك اللحظة: رقة لم تخب رغم قسوة الأيام، ابتسامتها التي كانت تذيب برد الليالي، وذلك الصمت الذي كان أحيانًا يعبّر أكثر من الكلمات، حين كانت تمسك يده في ساعات

العتمة، وتهمس له بأن كل شيء سيكون بخير. شمّ رائحة شعرها كما كان يفعل في صمت الغرف الخالية، رائحة كانت كنسمة عليلة في وسط عاصفة روحه. استحضر أصواتها، حديثها اللطيف، حتى ذاك الغضب الخفيف الذي لم يكن أكثر من نداء للحب والاهتمام. تذكر كيف كانت تزرع في قلبه أمانًا، كيف كانت تسمع أحلامه وتطمئن قلبه حين كان يتهالك من خوف المستقبل. لكن الذكرى لم تكن فقط دفء؛ كانت وجعًا عميقًا، ثقل الندم على الفرص الضائعة، على غياب تاه في متاهات الطريق، على وعد لم يُوف.

تساءل في صمت يعتصر الروح: هل هي الآن تبتسم؟ أم هل تذرف دموعًا حارقة كل مساء؟ هل نسيته، أم أن قلبها ما زال يعاني في غياب جواب؟

وسط الضحكات والوجوه الحاضرة، كان منعم وحيدًا مع تلك الأسئلة التي لا إجابة لها، أسئلة تشبه وحشة القلب التي لا تعرف الهدنة. ومع كل ذلك، عرف في قرارة نفسه أن هذا الحزن لن يزول، وأن شادية ستبقى حكاية لا تُنسى، وترانيم صمت يهمس بها قلبه في كل لحظة ضعف. ويتحسر على ما كانت ستؤول اليه الأمور لو كان بعض الاحداث مختلفة.

وداع السدر

بعد أسبوعين من وصول خبر موت جورية، خفتت الأصوات في العبيلة، لكن الصمت لم يخف ألمه. الجميع عاد إلى عاداته، إلى أرضه، إلى كلماته المكررة... إلا بلال، فهو لم يعد كما كان، كأن شيئًا داخله قد انكسر، كل ليلة، كان يجلس عند شجرة السدر. لا يتكلم، لا يقرأ، لا يكتب. فقط يحدّق في البئر التي لا وجود لها، وفي ملامح جورية حين كانت تُنادي "ناصر" من عمق الغياب.

في إحدى الليالي، حين أطال التفكير، همس لنفسه:
لن أزيد على الطفلين موتًا جديدًا... ليظلا ينتظران... فالأمل، وإن كذب، أرحم من الحقيقة التي تكسر العظم. اتخذ قراره: لن يبحث عن الطفلين بل سيدعهم يعيشون على امل زائف، وقرر ان يعود إلى الخرخير، ليجلب أمه العجوز، لكي يدخل البيت من بابه، ويطلب يد سلوى من جدّها... سلوى التي كانت سندًا في الصمت، وشاهدة على الحزن، ولم تطلب شيئًا. في ظهيرة ذلك اليوم، حين كانت الشمس تُغرق العبيلة بضوئها المتقد، أعد بلال صينية شاي نحاسية، ووضع عليها برادًا صغيرًا منقوشًا، إلى جانبه ثلاث قطع رغيف خبز محمص على نار الحطب، وقطعة تمر يابسة، يعرف أن سلوى تحبّها. اعانته الخالة هناء على تحضير كل شيء.
أخذ الصينية وسار بها نحو شجرة السدر. فرش قطعة قماش مطرزة عند الجذع، وجلس ينتظر، وبينما الريح تمر بين أوراق الشجرة كأنها تمهّد للقاءٍ حنون. ثم نادى بصوته الهادئ:
"سلوى... إن كنتِ لا تمانعين، الشاي جاهز"

توقفت عما كانت تفعله، نظرت نحو الشجرة... ورأت المشهد الذي لم تتوقعه. لم يكن نداءً عاديًا، لم يكن عن الشاي، ولا الرغيف، بل كان عن لحظة وداع أراد لها أن تكون دافئة، صامتة، لا تُشبه الموت، بل تُشبه الحياة التي قد تبدأ قريبًا. اقتربت سلوى ببطء، جلست مقابله، لم تسأل، ابتسمت بخفة، لكنها شعرت أن شيئًا ما خلف الكلمات. تأمّلها بلال للحظة، ثم قال:

"قد أخرج غدًا في سفر قصير... لا تقلقي، لست ذاهبًا بعيدًا، لكن لي حاجة في الخرخير"

نظرت إليه بدهشة صغيرة، لكنه لم يفسّر، ترك الجملة معلّقة كندفة هواء تمرّ دون أن تلمس الأرض. كان يعرف أن المفاجآت لا تُصنع من الكلمات، بل من الفعل الصامت، وأن قلب سلوى يستحق أن يُطلب برفق، لا بعجلة، وأن تُفتح له الأبواب بالاحترام، لا بالحزن.
في تلك الجلسة، لم يتحدثا كثيرًا، لكن في نظرات سلوى كان هناك سؤال، وفي ابتسامة بلال كان هناك وعد. وما بينهما، كان شاي يُسكب بهدوء... كأن الحياة تهمس:

"اصبري يا سلوى، فإن القادم ليس فراقًا، بل بدء جديد"

شعرت سلوى بشيء لم تستطع أن تسميه على الفور... لكنه تسلل إلى قلبها كنسمة، وكوجع خفيف في الصدر، وكفرح خائف لا يريد أن يصدّق. لم تكن تفهم تمامًا ما الذي يعنيه بلال حين قال: "سأخرج في سفر قصير". لكنها شعرت أن هناك شيئًا يُحضّر بصمت، وأن هذا اللقاء ليس عاديًا، فهو مُرتب، دافئ، عميق... يشبه الوداع، لكنه لا يشبه الرحيل.
نظرت إليه وهو يصب الشاي دون استعجال، وكأن كل حركة منه تقول شيئًا لا يُقال بالكلمات. في داخلها، كان قلبها يدقّ دقاتٍ مختلفة، ليس خوفًا، بل توقًا لأن يُقال ما لم يُقل.

كانت تعرف بلال... تعرف وجعه، تعرف حذره، تعرف كم يخاف أن يطلب، لأنه لا يريد أن يخسر ما لم يُمتلك بعد. لكنها، وهي تنظر في عينيه تلك اللحظة، رأت لمحة رجل قرّر شيئًا... لكنه يؤجله لتكون اللحظة أصدق.

شعرت أنها مرغوبة... بلا طلب، ومنتظرة... دون وعد. وشعرت أيضًا بالخوف. ذلك الخوف الذي لا يأتي من الفقد، بل من رجاءٍ كبير، رجاء ألا يخيب أملها، ألا يعود هذا الصمت إلى ما كان: صمتًا دون معنى.

كان في تلك الجلسة شيء يشبه الاعتراف، لكن على طريقة بلال: شاي... رغيف... وقطعة تمر. وسلوى، التي ما عرفت يومًا كيف يُقال الحب، فهمته هناك، في تلك التفاصيل الصغيرة، وشعرت في قلبها بأن الانتظار بدأ... لا انتهى.

قلب يدعو قبل أن يدعى

أم ماجد، المرأة العجوز، تنام أغلب الوقت، لكن عينيها لا تفقدان ذلك الوميض حين يُذكر الزواج، حين تقول له — كلما جلس قربها — بصوت متهدّج:
ماجد... ما يصبح الرجل رجل إلا ببيت فيه دفء... وطفل يناديه (ابي)

كان ماجد يبتسم، يغيّر الموضوع، أو يردّ بجملة غامضة، لكن الحقيقة؟ هو لم يهرب من الزواج لأنه لا يريده، بل لأنه لم يجد من تقبله كما هو: حاد، صامت، غامض، لكنه وفيّ حتى العظم. ثم جاء يومٌ، حين رأى أمه تُصلّي بصمت، ثم تمسح على قلبها بكفٍ مرتعشة، وقال في نفسه:
ربما ما تبقّى لها في الدنيا إلا هذا الدعاء... وأنا الوحيد القادر على تحويله إلى فرح قبل أن ترحل.

في ذلك اليوم، جلس قربها، نظر في عينيها، وقال:
"أماه... أظنّ الوقت حان. سأفعلها. سأتزوج"

تفتحت عيناها كأنها استعادت الشباب فجأة، وقالت بلهفة
"ومن؟"

ردّ بصوت هادئ:
عبير

سكتت، ثم ابتسمت... ابتسامة أم تُدرك أن ابنها اختار امرأة ليست أي امرأة، بل تلك التي مرّت أكثر من مرة أمام عتبة البيت دون أن تلتفت، لكنها كانت تحمل في عينيها دهشة

طفلة ونضج امرأة. عبير لم تكن الأجمل، لكنها كانت الأوضح... امرأة لا تحب الضجيج، وتحب الرجال الذين لا يتكلمون كثيرًا، بل يفعلون. كانت ترافق أم ماجد أحيانًا إلى السوق، تحمل عنها السلال، تسمع حكاياتها القديمة، وتضحك على قصص الطفولة التي تكررها للمرة العاشرة. وكانت العجوز، كل مرة تعود من السوق، تقول:
"...لو أنها لك، يا ماجد"

وماجد كان يسمع، لكنه لا يرد. لكن الآن، حين قرر، لم يكن الأمر زواجًا فقط... بل وفاءً لعمرٍ أم أمضته تتمنى، وانتظارًا لحياة قد يبدأها على غير عادته: بصوتٍ عالٍ، وقرارٍ واضح. قرر أن يُرسل من يطلب عبير، لكن على طريقته: بدون طبول، بدون احتفالات كبيرة، فقط صينية تمر، وثوب أبيض، ونظرة تقول: أنا هنا... لأبقى. وكان في قلبه رجاء واحد: أن تعيش أمه لتراه عريسًا، ولو ليومٍ واحد، فهي أمنيتها الأولى... قبل أي بيت أو امرأة.

حين دخلت امينة ام عبير الغرفة وقالت، بنبرة تحمل شيئًا من الانبهار، وشيئًا من الرهبة:
"ماجد... بعث أهله يطلبونك"

تجمّدت عبير للحظة، كانت تمشط شعرها، توقفت يدها في الهواء، وتوقفت أنفاسها قبل الكلمات. ماجد؟ ذاك الذي لا يتحدث كثيرًا، الذي إذا مرّ في السوق، لا يلتفت، وإذا حيّته النساء، اكتفى بهزّة رأس. عبير تعرفه، لكن من بعيد، من خلال صمته، من خلال نظراته التي لا تشتري ولا تبيع، بل تزن الأرواح لا الأجساد.

سألت امها بتوتر خفيف:
"ما الذي قالوه؟"

ردت المرأة بابتسامة:
قالوا إن ماجد يريد زوجة تكون سكنًا لا زينة، وصمتًا لا صراخ، قالوا إن أمه اختارتك، لأنها حين تراك، تهدأ عروق قلبها. عبير لم تردّ. كانت تعرف، أن هذا الطلب ليس مجرد عرض... بل اعتراف صامت من رجلٍ لا يعرف الاعترافات. وفي قلبها، كانت تخشى... تخشى أن تكون حياة ماجد صعبة، ألا تجد بين جدرانه دفء الكلام، لكنها كانت تُدرك أيضًا أن خلف كل صمت، هناك رجلٌ إن أحب، لا يخون... وإن وعد، لا يخذل.

في بيت ماجد، كانت أمه تجلس على سريرها، ترتّب السرير بنفسها، تمسح أطرافه وكأنها تستقبل زائرًا من السماء.

قالت لجارتها، بصوت مبحوح:
"إن أكرمني الله برؤيته عريسًا... فلا أبالي إن ناداني بعد ذلك إليه"

كانت تغلي ماء الزهر، تحضر الحناء في طبق فخاري، وترتّب الثوب الأبيض الذي ارتداه أبوه يوم عُقد قرانه منذ أربعين سنة. ماجد، في الزاوية، ينظر بصمت، لكن في داخله، كان طفلًا... طفلًا يريد فقط أن تُسرّ أمه، ولو مرة، أن تراه كما كانت تقول دائمًا: أريد أن أراك عريسًا... ثم أموت مطمئنة.

في قلب عبير، تشكّلت مشاعر لم تكن تتوقعها: مزيج من الخوف، الرهبة، والامتنان.
قالت لامها بعد طول صمت:
قولي لهم... إن وافقت، فليس من أجل ثوب أبيض، بل من أجل قلبٍ أمّ دعت لي، قبل أن يدعوني هو.

كثبان بين الخرخير والعبيلة

في صباح اليوم التالي، لم تفتح سلوى نافذتها كما اعتادت. لم تشأ أن ترى الطريق، ولا أن تعرف إن كانت خطواته قد عبرت العتبة بصمت. كأنها تخاف أن يخذلها الواقع، أو أن تسبقها العين إلى الحزن. اكتفت بأن تُمسك بالمنديل المطرّز الذي نسيه على حافة الصينية... وكأن فيه أثرًا من دفء الشاي، ومنه.

وفي العبيلة، مضى بلال على مهل. لم يودّع أحدًا. ترك للريح مهمة الإخبار، وللأثر في الرمل أن يقول إنه مرّ من هنا. مرّ لكنه لم يرحل، فقط ذهب ليعود كما يجب، كما يليق بسلوى.

في الطريق إلى الخرخير، لم يكن الطريق كما اعتاده. بدا له أكثر اتساعًا، كأن الزمن توسّع معه، ليمنحه فرصة التفكير ببطء.

وفي العبيلة، جلست سلوى في المساء عند شجرة السدر، وحدها. حملت معها براد الشاي نفسه، ووضعت على القماش نفسه قطعة تمر... لكنها لم تأكلها. كانت تقرأ في الفراغ كأنها تنتظر عودته في نسمة، أو في صوت خطوات على الرمل. لم تسأل أحدًا عنه. ولم تقل لجدها شيئًا. لكن جدّها، حين رآها تجلس هناك، تنظر حيث لا أحد، ابتسم في سرّه، وقال: إذا عاد من الخرخير، سأكون أول من يفتح له الباب

حين وصل بلال الخرخير، دخل على أمه، فوجدها جالسة عند المدخل، تمسك مسبحتها، تُردّد الأدعية ذاتها منذ ثلاثين عامًا، لكن حين رأت ظلّه ينعكس على الأرض، رفعت رأسها وقالت:

"بلال؟"

ابتسم كأنه عاد طفلًا، وارتمى عند قدميها، وقال وهو يُقبّل يدها:

"أماه، جئتُ أطلب إذنًا... لا للرحيل، بل للبدء من جديد"

تلك الليلة، لم يكن في العبيلة ضوء غير ذاك المتسلل من عيني سلوى، وهي تنظر إلى السماء، تتذكّر صوته وهو يقول: لست ذاهبًا بعيدًا. ولم يكن في الخرخير سوى أم عجوز، دمعت عيناها فرحًا، وشاب قرّر أخيرًا أن ينهي الصمت ... لا بالكلمات، بل بالفعل. منذ أن دخل بلال على والدته، لم تفارقه نظراتها. لم تسأله عن التفاصيل، لم تُعاتبه عن التأخير، فقط كانت تتأمله كما لو أنه عاد من زمن طويل، كأن الأيام التي مضت من دونه كانت ضبابًا، والآن بدأت تتضح ملامح الحياة من جديد.

جلست أم بلال على حصيرتها المرقعة، تُقلّب في صندوق خشبي صغير بعض الأغراض التي خبأتها لسنين: منديل زفافها المطرز بخيوط خضراء، قطعة من جلباب بلال وهو طفل، وسوار نحاسي منقوش. ثم قالت له، بصوت هادئ لكنه حاسم: إن أردت الرحيل، فارحل، لكن لا تتركني مرة أخرى... هذه المرة، إن خرجت، أخرج معك.

في الصباح، بدأ بلال يجهز للعودة. لم يكن في الخرخير ما يربطه إلا والدته... وها هي قد قررت أن تربط نفسها به. ذهب إلى جاره الأول، الحجّ عواض، وقال له:

"أحتاج إلى جمل... وسأعيده خلال أسبوع، أو عشرة ايام"

أجابه الشيخ:

"بل خذ اثنين، وسآتي بنفسي لأحمّل لك ما تحتاج... لا تقلق يا بلال، أمّك أمّنا"

ومن الجار الثاني، جاء ولداه ليساعدا في الرفع والتثبيت، أحضروا حصير الأم، صندوقها، بعض الأواني القديمة، كيس تمر، ورزمة ملابس مغسولة بعناية ومربوطة بثوب أبيض. كل شيء تم بسرعة... لكن في قلب الأم، كانت الحركة بطيئة. تنظر إلى كل قطعة تُحمَل،

وتهمس في سرّها:

"هذه غربتي التي طالت... تمشي أخيرًا على ظهر جمل"

قبل أن يغادرا، دخلت أم بلال بيتها الصغير، مرّت بيدها على الجدران الطينية، همست بكلمات لا يسمعها إلا الله، ثم خرجت، وتلفّعت بعباءتها السوداء، وقالت: الدار ما هي بالحجارة... الدار اين ما كان بلال ولدي.

وفي الطريق إلى العبيلة، كانت الشمس تراقب القافلة الصغيرة. جملان، وأم تُصلي بصوت خافت، وابن يسير إلى جانبها، كأنه يرافق قلبه في الطريق لا جسده. لم يتحدثا كثيرًا، لكن كل خطوة كانت تقول شيئًا. كل ارتجاجة في الرحلة كانت تزيل غبار الوحدة عن قلب الأم، وتُمهّد لعودتها إلى حضنٍ لم تعد تريده بعيدًا.

حين وصلوا أطراف العبيلة بعد أيام مسير، كانت سلوى تقف على باب البيت، كأن قلبها شعر بقرب قدومهم. رأت الجملين من بعيد، فرأت في المشهد ما لم تقله الأحلام. لم تكن تتخيل أن العودة ستكون بهذا الشكل، بهذه البساطة المؤثرة: بلال، وأمه، وصندوق، وجملان، وابتسامة تختبئ خلف غبار الطريق. استقبلهم الشيخ محمد بنفسه، رحّب بالأم، وأمر بإعداد مكان مريح لها، وأشار لسلوى أن تُساعدها. وبينما كانت النسوة يُرتبن الفِراش ويُحضّرن الشاي، جلس بلال عند شجرة السدر، وحده، ينظر إلى السماء، ويهمس لنفسه: لم أعد وحدي... ولن أكون

في تلك الليلة، شعرت أم بلال بشيء يشبه الطمأنينة، رغم التعب، رغم الغربة الجديدة، رغم خشيتها من المجهول. لكنها عرفت أنها لن تظل وحدها بعد اليوم. وسلوى... حين ساعدت الأم في طيّ عباءتها، شعرت لأول مرة أنها تلمس شيئًا يشبه الحلم، شيئًا يقترب من التحقّق. أما بلال، فقد بدأ يخطط لما بعد العودة... هذه المرة، لن يترك الأشياء دون أسماء، ولن ينتظر الريح لتقول ما يجب أن يُقال.

ليلة زفافه الأولى

لم يكن العرس فخمًا، ولم تُنصب فيه الخيام العالية المزينة بالأقمشة المطرزة، ولم تُذبح فيه الجمال بالعشرات كما يفعل بعضهم، بل كان بسيطًا... كما أراده ماجد، وكما تمنّته أمه العجوز "فرحة تكفي القلب، لا تُثقل الكتف"

في ساحة ترابية صغيرة بين النخلتين الكبيرتين، أمام البيت، نُصبت قطعة قماش بيضاء بين عمودين، ترفرف بخفة مع نسيم المساء، وتحتها اجتمع رجال القبيلة، يحملون فناجين القهوة المرة، ويبتسمون وهم يتبادلون التهاني دون ضجيج. جملان فقط... نعم، جملان، أحدهما مُزين بشرائط خضراء وحمراء، يتقدمه طفل صغير يضرب الدف بخجل، والآخر يحمل على ظهره صندوق الهدايا البسيطة: سجاد، قِربة ماء جديدة، وثوب عروس مطرز بخيوط أمه. لم تكن هناك زغاريد كثيرة، لكن كانت هناك طبول. دقاتها لم تملأ السماء، لكنها كانت كافية لإيقاظ الفرح في القلوب. أربع نساء من كبار السنّ في القبيلة، ارتدين عباءاتهن الداكنة، وأمسكن بالدفوف، يضربنها بإيقاع يعرفه كل من نشأ في تلك الأرض. كانت إيقاعات قديمة، تحفظها الرمال، وتفهمها البيوت المصنوعة من الطين، وكان الغناء لا يعلو... لكنه يدخل إلى القلب مباشرة.

جلست العروس، عبير، خلف ستارة قماش، بين أخواتها، لا ترى ما يحدث، لكنها تسمعه وتشعر به، وتحاول أن تخفي توترها بابتسامة صغيرة. كانت يد والدتها على كتفها، والحناء على كفّيها ما زالت رطبة، يفوح منه عبق الأعراس الأولى، البسيطة، الصادقة. أما ماجد، فجلس بجانب أحد الشيوخ الكبار، بثوبه الأبيض النقي، وعقاله الأسود، ونظرته التي تجمع بين الحياء والرجولة. لم يكن من أولئك الذين يضحكون بصوت عالٍ، لكنه كان يبتسم

بعمق، كأنه يقول للعالم: هذا يومي، لا يُشبه غيره.
أيوب يراقب التفاصيل من حوله بعينٍ لا تهدأ، يتحرك بخفة ليطمئن على الضيوف، يُعدل شماغ ماجد حينًا، ويهمس له بشيء يُضحكه أحيانًا، كأنّه فرح أخيه، وكأنّه يحاول أن يجعل هذا اليوم كاملاً كما يجب. ناصر وسالم، كانا كظلَّين لماجد، لا يتركان له حاجة تُقال مرتين. سالم، بخفّته المعهودة وابتسامته التي لا تفارقه، كان يركض بين الرجال، يُقدّم القهوة، ويُصلح ما يُفسده الاستعجال. بدا كمن يحمل الفرح على عاتقه، ولا يريد أن يسقط منه شيء.
أما ناصر، الأصغر، فكان يتابع أخاه بعينٍ واسعة، فيها انبهار وفخر. حمل شماغ ماجد حين نسيه، وأسرع لإحضار عقاله حين لم يجده. كان يتحرك وكأنه يُشارك في حلمٍ كبير، حلم ماجد، الذي صار واقعًا جميلاً في عيون الجميع.
قدّمت القهوة، ثم التمر، ثم صحن كبير من اللحم المشوي على الحطب، وبعض الخبز الذي أعدته نساء الحي منذ الفجر. لم يكن هناك ما يُبهر العين، لكن كان الرضا يملأ المكان.
وفي لحظة معينة، حين اشتدّ قرع الطبول، وتقدّم أحد شبّان القبيلة ليرقص بالسيف كما كانت العادة، نظر ماجد إلى السماء، كأنما يشكرها بصمت، ثم قام من مكانه وتقدّم نحو الجمل المُزيّن، فوضع يده على عنقه وقال:

"من اليوم، نبدأ سطرًا جديدًا"

وفي تلك الليلة، بعد أن انفضّ الجمع، وبعد أن توقفت الطبول، وبعد أن خمدت النار وبقي منها جمرٌ خافت، دخل ماجد إلى البيت الذي أُعدّ له ولعبير. لم يكن كبيرًا، فقط غرفة طينية صغيرة، فيها سرير خشبي قديم، عليه غطاء مطرّز بخيوط أمه، ورائحة بخور علقت في الجدران. فتح الباب ببطء، تنحنح قليلاً، ثم قال:

"...السلام عليكِ يا عبير"

خرجت من خلف الستارة، بخجل امرأة تُدرك أن حياتها قد بدأت الآن، ونظرت إليه ولم تقل شيئًا، لكنها انحنت قليلًا لتقبّل يده، كما أوصتها أمها. أمسك بيدها برفق، ثم جلس إلى جوارها، وقال بهدوء:

لا أملك الكثير... لا قصر ولا ذهب، لكني أعدك ألا تمري بيوم واحد دون أن تعرفي فيه الطمأنينة.

في الخارج، كانت الريح تمرّ على الجمر المتبقي، تنثر رماده على الأرض، وتهمس للعويصي:

"ماجد تزوّج."

"ماجد تزوّج."

"ماجد تزوّج."

"ماجد تزوّج."

"ماجد تزوّج."

حين تختار المرأة نفسها

في الجهة الأخرى، هناك في الحفاير، هدوءًا ثقيلاً يخيّم على بيت مليكة، أم شادية. شيءٌ ما في الهواء يوحي بأن الحياة ستتبدّل... وربما بلا إنذار.
وصل الرجل عصرًا، على صهوة جواد رمادي، يرتدي جلبابًا ناصعًا وعقالًا بسيطًا، لا يعلنه الغرور لكن يلفّه الوقار. لم يكن من أبناء الحفاير، بل من جهةٍ أخرى، معرّف بين القبائل، وتاجر سُمِع عن كرمه، وفارس لا يهاب. دخل البيت بعد أن نزل عن فرسه، صافح الأم وقال بكلمات مختصرة:

"جئت أطلب يد ابنتك شادية... ولها الكلمة أولاً"

ترك اسمه جانبًا، فقط اكتفى بالقول إنه ابن محمد البرغوتي الأكبر من قبيلة العبيلة في الجنوب. حين أخبرت الأم ابنتها بالأمر، بقيت شادية صامتة طويلاً. جلست على الأرض، ووضعت يدها على ركبتيها، كما كانت تفعل كلما زارها الهم. نظرت إلى الجدار الطيني أمامها، وكأن فيه بابًا لو فتحته، لخرج منه منعم.

...لكن منعم
منعم متزوّج،
وليس لها
ولا كانت له

همست في سرّها، وكأنها تحاول إقناع قلبها بما يعرفه عقلها منذ زمن:

"إلى متى سأنتظر؟"

لقد أحبت منعم بصمت طويل، كما تحب الأشجار المطر في مواسم الجفاف. لم تقل، لم تلمح، لكنها كانت تحضر الخبز كلما مرض، وتُعدّ له الشاي كلما عاد متعبًا. كانت تُحب... بصبر، وبرجاءٍ مؤلم، لكنه شريف. لكن حين سمعت قبل شهرين أنه عاد إلى الشامان ليبقى مع زوجته وبناته، شعرت أن الوقت تحرّك بقسوة. فجأة، لم تعد الثلاثون رقمًا عادياً. أصبحت ثقيلة. صارت مرآة تسألها كل ليلة:
إلى متى ستبقين بجانب أمك، تصنعين الخبز، وتروّحين عن وحدتها... دون أن يكون لكِ رجل، أو سند، أو طفل يناديكِ أمّاه؟

في ذلك المساء، جلست إلى جوار أمها، وقالت وهي تنظر إلى الأرض:

"هو رجل طيّب؟"

أجابت مليكة:
وفيّ... لا يرفع صوته، وله سُمعة بين الناس. لم أر منه إلا الأدب، وجاء من بابه، لا يطلب خلسة ولا يرسل واسطة.

سكتت شادية، ثم قالت:

أنا ما عُدت صغيرة، يا اماه ولو القلب ما صفى، العقل يعرف. أنا ما نسيت منعم، لكن من نسي وجودي لن أنتظر له العمر كلّه.
وحين جاء الرجل بعد يومين ليسمع ردّها، وقفت شادية عند الباب، لم تضع الكحل، لم تلبس جديدًا، لكنها كانت مهيبة، مكسوة بجمال الهدوء. قالت له، دون خجل، دون لفّ:

إن كنتَ تراني سكنًا، فأنا أحتاج من يسندني أنا ما كنت يومًا هينة، لكن الوحدة أتعبتني.

فأومأ برأسه وقال:
"وأنا رجل يعرف كيف يصون البيت، ويُقدّر من كانت مثلك"

وهكذا، خرجت شادية من صمت السنوات... واختارت لا عن غفلة، ولا يأسًا، بل عن وعي امرأة أرادت بيتًا، وأردفت الحب خلفها، علّه يأتي لاحقًا... أو لا يأتي.

كانت تلك الليلة، ليلة لا تُشبه ليالي الزفاف.

لم يكن في بيت مليكة أضواءٌ كثيرة، ولا نسوة يُنشدن المواويل، ولا طفلة تُنثر الزهر في الممرّ. بل كان كل شيء هادئًا، خافتًا، كأن الحفاير كلها قررت أن تهمس احترامًا لصمت شادية. ارتدت ثوبًا مطرزًا يدويًا، بلون النبيذ الداكن، محاطًا بخيوط ذهبية رقيقة كأوردة الضوء على صفحة الغيم وقت المغيب. لم يكن جديدًا، بل أخرجته من صندوق أمها، كان لجدتها، وارتدته مليكة ذات يوم حين كانت عروسًا... حين كانت الحياة أكثر خفة، والقلوب أقل وجعًا وهاهي بنتها ترتديه مكملة تلك التقاليد. وضعت شادية على رأسها شالًا من الحرير الأسود، لا يغطي ملامحها تمامًا، لكنه يُخفي ما يكفي... من التعب، ومن الرجاء. يداها حنّيتا بنقوش بسيطة، لم تختَر شكلها، بل تركت للنساء الكبيرات في السن أن يُخضبنها بما يعرفنه من الرموز: سعفة نخيل، خط صغير مائل، ونقطة في الكف... كلها تقول شيئًا عن الصبر، عن الأرض، عن النساء اللواتي يحملن الحياة بصمت.

لم تبكِ مليكة، لكنها كانت تُرتّب الغطاء على سرير ابنتها كما لو أنها تُودّع ضلعها. قالت لها وهي ترفع أطراف الثوب:
كوني قوية... لكن لا تقسي. واعرفي، الذي يحبك، يحميك من الأيام.

هزّت شادية رأسها، وقبّلت يد أمها، ثم قالت بصوت حاولت أن تُبقيه ثابتًا:
أنا ما كنت أريد أن أرحل... لكن ما عاد لي مكان هنا الذي كنت أنتظره له حياة نصبها قبلي وأنا لي الحق أختار نفسي.

كانت قد قررت منذ اليوم الأول أنها سترحل مع زوجها إلى قبيلته لن تبقى في الحفاير، حيث يعرف الجميع قصتها مع منعم حيث يُقال اسمها همسًا خلف الأبواب قالت له من البداية، حين تقدّم:
إن رضيت بي... فارحل بي معكلا أريد بيتًا قريبًا من الأماكن التي فيها كنتُ ظلًا.

وافق
لم يُجادل، لم يسأل، فقط نظر إليها وقال:
"امرأة مثلك لا تُترك في نصف الطريق"

في تلك الليلة، لم يُدقّ طبل، ولم تُزفّ العروس على ظهر جمل، بل جاءت عربة صغيرة يجرّها بغلٌ رمادي، جلس فيها الرجل، ينتظر زوجته، خرجت شادية بخطى ثابتة، لا تلتفت، لا تودّع، وفي عينيها دمعة لم تسقط، لكنها تشبه الحياة التي تأخرت كثيرًا. وقفت مليكة عند الباب، لم تقترب منها، فقط قالت بصوت مسموع:
رحلة مباركة يا بنتي... وإن ما سعدك الزمان، ارجعي لي،
ركبت العربة، ولم تنظر خلفها. كانت تعرف أن الرحيل الحقيقي لا يحدث في الخطوات، بل في النية. وشادية، نوت أن ترحل. في طريقها إلى القبيلة الأخرى، لم تفكر كثيرًا بما تركت، بل فكّرت بما يمكن أن تُبنيه فربما لم تأخذ الحب،
لكنّها تحمل في قلبها: الكرامة، والهدوء، والرغبة بأن تكون امرأة لا تُكسر مرتين.

زفاف من رماد

حين وصلوا إلى بيت الشيخ محمد، كان الصمت يكسو المكان، وكأن الجدران نفسها تنتظر القرار. بيت بسيط، من طين الأرض ونخيلها، تعلوه السماء برقتها وتحتضنه الريح بهدوء.
دخلوا الفناء حيث جلس الشيخ محمد مع كبار القبيلة، وجوههم تحمل تجاعيد الزمن، وأعينهم تتحدث بلغات لا تحتاج كلمات. جلس بلال وأمه بهدوء، يحمل صندوقًا خشبيًا صغيرًا، مزخرفًا بزخارف بديعة، فيه هدايا تعبّر عن الاحترام وعن وعدٍ بالوفاء. رفع بلال نظره، وقال بصوتٍ لم يخنقه الارتباك، بل حمل ثقل الحلم والصدق:
"جئنا اليوم نطلب يد سلوى، قلبًا وقَدَرًا، لنبني حياةً لا تُنسى، لا مجرد حياة عابرة"

قال الشيخ محمد بصوتٍ جادٍ يحمل حكم سنواته وخبرته الطويلة:
نحن في العبيلة لا نزوج بناتنا إلا وهن راضيات، فما الفائدة من زواج بلا رضى القلب؟
توجه إلى هناء وقال لها بنبرة حانية لكن حازمة:
"ادخلي يا هناء، واعرفي ماذا تقول سلوى، فقرارها هو قرارنا جميعًا"

دخلت هناء البيت بهدوء، وأصغت لصوت ابنتها من الداخل، وفي اللحظة التي تخطت فيها باب الغرفة، علت زغرودة قوية، كانت كالرعد الذي يكسر سكون السماء في يوم صيفي.
انتشر الخبر في العبيلة كالنار في الهشيم، فزغاريد النساء تعانقت مع همسات الرجال، وأضواء المصابيح الزيتية أُضيئت في كل زاوية، كأن الأرض كلها تحتفل بقصة حب بلال وسلوى. لم تكن مجرد زغرودة، بل كانت إعلانًا صامتًا، مفاده أن قلب سلوى قد اختار، وأنها مستعدة للدخول في حياة جديدة، حياة يزورها الفرح والكرامة.
تحت سماء العبيلة الصافية، كانت الليالي تنسج خيوطها بهدوء، تتراقص الأنوار الخافتة

داخل البيوت، والأحاديث المتشابهة تدور بين الجدران الطينية كهمسات قديمة. في بيت الشيخ، كانت التحضيرات تجري على قدم وساق. أجواء فرح خفية تعم المكان، رغم بساطته، كان الأمل ينبض في قلوب الجميع، وبالأخص في عيني هناء، الأم التي تبذل كل ما في وسعها لترى ابنتها سعيدة.

في إحدى ليالي التحضيرات، أوقدت هناء التنور القديم لصنع الخبز الطازج الذي يعد طقسًا يوميًا لا يمكن الاستغناء عنه. كانت النار تشتعل تحت التنور، تنتشر روائح الخبز في الأرجاء. حين انتهت من خبزها، خرجت مسرعة لتلبية طلب بعض النسوة في الحوش. وسلوى في غرفتها، تجلس مع المطرزات التي تعبّر عن فرحة لا تزال خافتة في قلبها، أصابعها تداعب الخيوط، وعيونها تغوص في بحر من الأحلام والأماني لم تكن تسمع سوى خفقان قلبها، ورائحة الخبز الطازج. كل شيء هادئ، كل شيء طبيعي... حتى جاءت اللحظة التي لم يكن يتوقعها أحد.....

وبصوتٍ كصهيل البرق، اندلع حريق.
دخان كثيف يتصاعد فجأة، وصرخة حادة تكسر صمت الليل. النار تخرج من التنور، تلتهم الخشب، تنتشر بسرعة لا ترحم. كان البيت يئن تحت وطأة الحريق
في قلب الغرفة التي تحولت إلى فخ من اللهب والدخان، ارتفعت صرخة سلوى وسط الدخان الكثيف، بدأت تتنفس بصعوبة تتزايد مع كل لحظة عيونها الواسعة كانت تعكس لمعان النار التي تحيط بها من كل جانب، وكأنها تواجه قتالًا لا يُرى إلا بقلبها وروحها. كانت ملابسها تلتصق بجسدها من أثر العرق، وشعرها المتناثر يغطي جزءًا من وجهها، لكنه لم يكن كافيًا ليخفي نظرة اليأس التي بدأت تتسلل إلى قلبها.
حاولت أن تفتح الباب، يدها ترتجف، لكن الحرارة القاتلة والرماد الكثيف منعاها من

التحرر. صوت أنفاسها المحمومة كان يختلط بصهيل النيران، وكأنها تردد صلاة صامتة، تستجير بالله، تتشبث بأملٍ ضعيف بين ألسنة اللهب. عيناها لم تغلقا، كانت تنظر إلى اللاشيئ، تبحث عن نور أو خلاص، عن وعد لم يُنطق به بعد. فجأة، ارتفع صوت خطوات سريعة تخترق صمت الليل، وتتهادى بين أزقة العبيلة المتعرجة. كان بلال، متجهًا مع الشيخ محمد من المجلس، قد شعر بشيء غير عادي يلوح في الأفق.

بيت هناء بنت محمد يحترق.

صاح أحد المارة .

اقتربا من البيت المشتعل، حيث بدأ الدخان يتصاعد، ينبعث من نوافذ البيت المشتعلة، يتلوّن برائحة الخشب المحترق، وتعلو من هناك أصوات النداء والصرخات المتداخلة. ركض القوم جميعًا، رجالًا ونساءً، بعضهم يحمل جِرار الماء، وآخرون يلوحون بأغطية ثقيلة، يحاولون إخماد الحريق قبل أن ينتشر أكثر. بينما كان بلال يندفع نحو البيت، قلقه يتصاعد كلهب النار التي يواجهها، كانت خطواته تثقلها عواطف متشابكة بين الخوف واليأس. وصل إلى الباب، لكنه كان ساخنًا كجمر مشتعل، لا يمكن المساس به. صوت صرخات هناء يتقطع في الخارج:

اخرجوا سلوى

لكن الألسنة تلهب كل شيء بسرعة، وكأنها تحارب الزمن نفسه. في خضم الزحام وصخب اللهب المتصاعد، خارت قوى الشيخ محمد، ومال ببطء على أحد الأعمدة الخشبية المهترئة، عيناه تتابعان المشهد المأساوي بقلق عميق. تحرك نحو النافذة من الجهة الاخرى، قلبه يرفرف بين الخوف والغضب، كان يريد أن يدخل وينقذ ما يمكن إنقاذه، لكن كل شيء

حوله مشتعل، النيران تلتهم الأبواب، النوافذ، والأرض تحت قدميه تتحول إلى جمرة حية.
نظر حوله، يبحث عن أي مدخل أو فتحة يمكن أن يتسلل منها، لكن الدخان الأسود الكثيف يغطي كل شيء، والحرارة تكاد تحرق جلده.
صرخ بأعلى صوته:
"سلوى"

لكن الرد كان مجرد همسات بعيدة، تذوب في صراخ النيران، وبلال يقف عاجزًا أمام جدار من النار، وجدران الحزن التي لا تُكسر.

حين اشتعلت العبيلة

سكنت النيران كما تسكن العاصفة بعد أن تفرغ كل غضبها. وعمّ المكان صمت غريب، لم يكن هدوءاً، بل سكوناً ثقيلاً، كأنّ العبيلة كلها قد توقّفت عن التنفّس. الدخان الأسود ظلّ يعلو نحو السماء كسحاب الحزن، متشبثًا بالهواء، معلنًا أن الحياة التي كانت هنا... قد انطفأت. وقف بلال وسط الركام، لم يتحرك. لم يقل شيئًا لم يبكِ لم ينهَر.
فقط... وقف.

وجهه مغطّى بالسواد، عيناه جمرتان مطفأتان، ويداه ترتعشان دون أن يعرف إن كانت تلك الرجفة من الخوف... أم من الفقد. اقترب رجل من أهل العبيلة، صوته متردد، كمن لا يعرف كيف يقول ما لا يُقال:
"...وجدناها، يا بلال"

لكن بلال لم يسمعه أو ربما لم يشأ أن يسمعه. تحرّك بخطى بطيئة نحو ما تبقى من البيت، كانت الأرض لا تزال ساخنة، يعلوها الرماد وبقايا الخشب المحترق. حين وصل إلى العتبة التي تفحّمت، رأى جزءًا من ثوب سلوى... ذاك الذي كانت تحضّره لليلة زفافها... الآن، قطعة من رماد. جثا على ركبتيه، لمست أصابعه التراب المحترق، حفن منه شيئًا، وتركه يتساقط بين يديه.

قال بصوت لم يسمعه أحد:
"لو كنتِ ناديتِني مرة فقط... لكنتُ دخلت النار لكِ"

لكن سلوى لم تنادِ
وسلوى... لم تعُد.

في الطرف الآخر، كانت هناء منهارة بين أذرع النسوة، تبكي بلا توقف، كأن قلبها يحاول الخروج من صدرها. كانت تكرر:
"كنتُ فقط ذاهبة لخيطٍ من الحرير... خيط من المطرز... وتركتها وحدها"

ما عادت تميز إن كانت النار قد أحرقت البيت... أم أحرقت قلبها. الشيخ محمد، وقد بدا عليه الإنهاك، جلس عند جذع شجرة التين، لم ينبس ببنت شفة، فقط عينيه تحدقان في الأفق.
ربما يتذكر تلك الليلة التي فرح فيها بخبر الزفاف، ربما يشعر بثقل الخطأ الذي لا يُغتفر، ربما يرى ظلّ سلوى وهي تمشي ناحية النور... لكن دون عودة. أهل العبيلة لم يتفرقوا تلك الليلة، بل جلسوا في صمت، لا أحد يجرؤ أن يهمس بكلمة، كأن النار لم تحرق فقط البيت، بل أحرقت معهم القدرة على الكلام.

في اليوم الموالي للكارثة، اجتمع الرجال لدفن ما تبقى. بلال بثوبه المحترق، لم يبدّل ملابسه، لم يغتسل، لم يأكل. كان يسير خلف النعش الملفوف في ثوب أبيض، لكنه يعرف... أن مَن في الداخل لم تعد بحاجة إلى الثوب، ولا إلى الطقوس، بل إلى الرحمة. وقف الجميع في صفوف صامتة، حتى الهواء كان يمرّ بهدوء، كأنه يخشى أن يوقظ الألم.

حين وُضعت سلوى او ما تبقى من سلوى في قبرها، لم ينطق بلال بشيء، بل توسد قبرها ونام كمن يسدل ستارة المسرح على فصل لم يكتمل. لكن الجميع عرف... أن بلال، في الليلة

التي خمدت فيها النيران، لم يفقد سلوى فقط، بل فقد صوته، ونوره، وقلبه. وأن تلك الليلة، لم تُحرق بيتًا، بل حرقت حكاية... كانت ستُروى للأبد.

لم يعد بلال كما كان
لم يغادر المقبرة
لم يعد إلى البيت

جلس عند قبرها، ظهره محنيّ كمن يحمل على كتفيه جبلاً من الندم، ويداه متشابكتان بين ركبتيه، رأسه منخفض كأنه يخجل من الهواء، من التراب، من نفسه.
مرت الليلة الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة.
وبلال لا يتحرك إلا إن رفع نظره قليلًا، يقرأ اسمها المنقوش على حجر صغير جلبه أحد رجال العبيلة، ويهمس في داخله بأشياء لا تُقال، لا تُسمع، فقط تنكسر داخله. لم يأكل ولم يشرب كان يكتفي بما ينزل من السماء من ندى، يبل به شفتيه اليابستين، وكأنه يستعير من الغيم قطرة حياة، فقط ليبقى حيًا بما يكفي للبكاء. كل من مرّ بقرب المقبرة رآه هناك، ساكنًا، كصخرة نُحت فيها الحزن. الشيخ محمد أرسل له طعامًا، أرسل له ماءً، أرسل من يناديه... لكنه لم يجب كأن صوته مات يوم ماتت سلوى. كانت هناء تمر من بعيد، تنظر إليه بعينين ممتلئتين بالدموع، لكنها لا تقترب هي أيضًا، لم تعد كما كانت. منزلها فارغ، الصمت يسكنه، وكأن النيران ما زالت تشتعل فيه، تحرق الأثاث، والجدران، والذكريات.

وفي اليوم الخامس، جاء طفل صغير يحمل كسرة خبز وكوب ماء، اقترب من بلال بهدوء، وهمس:
"قالوا إنك تحتاج اكل، لتستطيع ان تحلم بها"

لكن بلال لم يمد يده.
أدار نظره إلى القبر، وابتسم ابتسامة شاحبة، ثم قال لأول مرة منذ موتها:
"هي الحلم... وأنا الحطام"

في احدى الامسيات، سمع أحدهم بلال يقرأ سورة "يس"، بصوتٍ واهن، متقطع، مبلل بالدمع. لم تكن تلاوة فقط كانت نداءً كانت وداعًا او ربما محاولة أخيرة للبقاء في حضرة من رحلت.

...ومنذ ذلك اليوم، صار قبر سلوى موطنًا لظلّ بلال، وجراحه، وصلاته الصامتة
كأن الحياة كلها اختزلت في حفنة تراب، واسم محفور، ورجل مكسور يجلس هناك، ينتظر شيئًا لا يأتي ولا يريد أن يأتي.

في زاوية البيت المتفحمة، كانت أم بلال تجلس على حصير قديم، تحدق في الأرض طويلاً وكأنها تبحث بين شقوق التراب عن بقايا روحٍ احترقت. لم تكن تبكي، فقد تجاوز الحزن عندها مرحلة الدموع.
كل من زارها وجدها تهمس لنفسها، تردد كلمات متكسّرة، لا تُوجَّه لأحد:
كانت ستصبح ابنتي... كنت سأضع الخضاب في يديها... لم نكد نفرح حتى سُلب منا ...الفرح.

أما الشيخ محمد، فقد تغيّر صوته، انخفضت نبرته، وغابت عنه تلك الهيبة الواثقة التي كانت تملأ حضوره. كان كل يوم يقف عند شجرة السدر، يضع يده على جذعها، كمن يطلب الصفح من شيء لا يتكلم. لم يتكلم كثيرًا منذ الحريق، لكن من رآه في تلك اللحظات أدرك أن الرجل الذي كان يقود القبيلة بعينين مفتوحتين، قد أغلق إحداهما إلى الأبد. لم ينسَ

صمت بلال عند النيران، ولا ارتجاف صوت هناء، ولا الجنازة التي حملت معها كل ما تبقّى من أمل. وهناء تمشي في بيتها كمن يفتّش عن حلم سقط في غير موضعه تفتح الصناديق القديمة، تلمس بقايا الثوب الذي احترق نصفه، وتضمّه إلى صدرها لم تكن تنام، بل تسند رأسها على وسادة سلوى، تتنفس منها كما لو أن شيئًا من ابنتها ما زال باقٍ فيها. وفي كل فجر، تعود إلى باب التنور، تقف صامتة، لا تبكي، لكن نظراتها كانت كافية لتقول كل ما لا يُحتمل.

في صباحٍ غائم رغم صفاء السماء، وصلت قافلة الحفاير إلى أطراف العبيلة، لكنها لم تجد في استقبالها الزغاريد، ولا ابتسامات النسوة عند الأبواب، ولا رائحة الهيل تنبعث من البيوت. استقبلهم الدخان البارد، وآثار الرماد الممتد على أطراف الجدران، كأن العبيلة قد لبست السواد، لا بالثياب، بل بالتراب. ترجل خالها الأكبر أولًا. لم يكن مضى على زفافه سوى أيام لم تجف الحنّاء من يدَي زوجته شادية بعد، وما تزال أهداب ثوبه تلمع بخيطان العرس الجديد. لكنّه، حين رأى الوجوه المتعبة، والقلوب المغموسة بالصمت، أدرك أن شيئًا عظيمًا قد سُلب من المكان. تقدّم خطواتٍ قليلة حتى رأى الركن المتفحم، والرماد المتناثر، وبلال جالسًا عند قبر حديث، لا يتحرّك.

ثم سمع ما لا يُنسى

امرأة تنوح داخل البيت، تقول:

"كانت تعدّ فستانها بيديها... وسُلبت من يدي"

لم يكن بحاجة إلى من يخبره فالحقيقة نطقت بكل وجوه العبيلة. أما خالها الثاني، الذي كان قد عاد للتو من الرحلة الطويلة، فقد جلس على الأرض، وغطى وجهه بيديه كأنّ الطريق الذي اجتازه قد اختفى، وكأنّ سلوى ذابت هناك، بين خطواتهم، قبل أن يصلوا. قال بصوت لا يسمعه إلا التراب:

...ما كانت تقول إنها تتعب"
كلما سألناها: هل أنت بخير؟
كانت تبتسم وتقول: بخير ما دمت معكم.

لكنها لم تعد معهم ورحلت قبل أن تودّع.
شادية، التي جاءت كهروس، وجدت نفسها تخلع ثوب البهجة من على كتفيها قبل أن تخطو أولى خطواتها في البيت. جلست قرب هناء، التي لم تعد تشبه ذاتها، وشدت على يدها، بلا كلام. كانت تعرف أن الموت حين يختار فتاةً في عمر الأمل، فهو لا يقتلها وحدها، بل يأخذ قطعة من كل من أحبّها.
في المساء، حين تغيب الشمس، يجتمع أهل العبيلة في صمت، لا يُسمع بينهم إلا صوت الريح يمر على رماد التنور القديم، كأن النار ما زالت هناك، تحرس الحكاية، وترفض أن تُطوى بسهولة.
وهكذا، لم يكن لسلوى ثلاثة أخوال.
كان اثنان فقط، أحدهما عاش اللحظة، والآخر تذوق مرارتها،
...أما الثالث، فقد مات منذ زمن.
وكأن سلوى تبعت خطاه، لتُدفن بجانبه،
حيث لا نار هناك،
...ولا وجع
فقط الهدوء الأبدي الذي يشبهها.

وتمضي الأعوام كأنها حلم

في الشامان، حيث الأرض أكثر اتساعًا والهواء أخف وطأة، كان البيت لا يغلق بابه، والدفء لا يغادر عتبته. البنات الاربع يجلسن قرب أمّهن، يتهامسن، يحكين عن السوق، عن الحكايات الصغيرة، عن أغنية سمعتها سلمى في البئر، وعن خيالٍ مرّ خلف الأشجار وفي آخر الزاوية، يجلس هو، لا يقول الكثير، لكنه يبتسم.

يكتفي بالمشهد، يمدّ يده أحيانًا ليمسح على رأس هالة، أو يناول رقية كتابًا قديمًا، أو يُصلح ضفيرة شادية اخر العنقود التي سمّاها بنفسه، على اسمٍ بقي حيًّا في قلبه.

لم يكن بحاجة أن يشرح شيئًا. الاسم وحده كان يكفي، لتعرف فاطمة أنه ذات مساء بعيد، مرّ طيف فتاة، بقي هناك... ولم يغادر.

أما في العويصي، بين النخيل ومساحات الصمت التي لا تخلو من دفء، فقد بُني بيت جديد على أنقاض الحنين. جميلة، العجوز التي رافقت المرض، والأمل، والوحدة، ما زالت تحتفظ بكوب شايها في ذات الزاوية، تقرأ ما لا يُكتب في نظرات عبير، وتراقب سلوى وجابر احفادها وهما يركضان خلف بعضهما في الفناء.

ماجد، الذي لم يكن يومًا كثير الكلام، صار يعرف الآن كيف يصمت بحنان، وكيف يُنصت للأيام وهي تمر دون أن تُجرح. عاش مع عبير لا كزوج فقط، بل كرفيق نجا من التوهان.

في الليل، حين يهدأ كل شيء، يجلس مع سالم وناصر عند المدخل، يتبادلون الحكايات، يضحكون، يتذكّرون الطرق، والسراب، والخوف الذي صار ماضيًا.

سالم وناصر لم يفترقا قط، وكأن الصحراء حين أضاعتهم، أرادت أن تُنسيهما كل شيء إلا الأخوّة. لم يعرفا قط عن موت "جُورية"، وما زالا يعيشان على أمل أن يجداها، يوماً ما، بين رمال تهبّ منها الذكريات أكثر مما تهبّ منها الريح.

في العبيلة، حيث كل شيء بدأ، خمدت النار، وبقيت الندبة.
أم بلال ما زالت تقيم في بيت الشيخ محمد البرغوتي، لا تتحرك كثيرًا، ولا تتكلم، لكنها تمشي كل صباح حتى قبر صغير قرب شجرة السدر، تضع أمامه قطعة خبز ووردة جافة، ثم تعود.
بلال، الذي ظلّ عامًا كاملاً بعد موت سلوى لا يأكل إلا مضطرًا، ولا يشرب إلا ما يبلّ حنجرته، أطفأه الحزن ببطء. كانت روحه تتآكل بصمت، وكان وجهه يذبل كما تذبل الأشجار في نهاية الخريف. لم يمت فجأة... بل انسحب من الحياة كما تنسحب الشمس عند المغيب، حتى لم يبقَ منه إلا اسمٌ على حجرٍ، يرافق اسمها.

لما تزوجت شادية من سمير، الابن الأكبر لمحمد البرغوتي، بدأت حياةً جديدة، ليس فيها الكثير من الحنين، بل من البناء. الان هي تحمل طفلاً في أحشائها، وبدأت تخيط له قماطه بيديها، كما كانت أمّهات الحفاير يفعلن قديمًا. لم تكن تنظر خلفها كثيرًا، لكنها كلما مرّت بجانب البئر، لمست حبله برفق، كأنها تُربّت على كتف الذاكرة.

وهكذا حين تنام البيوت، وتهبّ نسمة باردة، تمرّ الريح بين الأغصان، وتهمس للشجر، بعد ان تعبر فوق القبور:

بعض الحكايات تنتهي... لتبدأ من جديد، لكنّ من أحبّوا بصدق، لا يموتون، بل يتغيّر شكلهم في الذاكرة.

في حجر اليمامة كانت النهاية وربما البداية

مرت ثمان سنوات على الأيام التي غابت فيها الوجوه، وتغيرت فيها الطرق، وامتدت الحكايات في أرجاء الصحراء والسهول. وفي مكان ليس ببعيد عن صخب القرى، وعلى ملتقى طرقٍ قديم يسمّى "حجر اليمامة"، ارتفع سوقٌ كبير، حيث يلتقي الغريب والجار، وتتبادل الأصوات الأمل والحكايات.

كانت الشمس تغرب بألوانٍ حمراء كأنها ترسم لوحةً وداعًا وحكايةً جديدة، حين وصل ماجد على ظهر جمله، يتبعه سالم وناصر، وجوههما التي تخلّلتها أحلام الرحيل والصبر.
اقترب منه منعم، رجل الشامان، الذي حمل في عينيه نظرة الحكمة التي لا تكتب في الكتب، ولكنها تَقرأ في العيون. ومعهم، جاء أيوب، الذي شقّ دروبه بين الصحاري باحثًا عن نفسه، متوقفًا للحظة ليتأمل ثقل الرحلة.
وقفوا عند زاوية السوق، حيث التقاء الخطوط وتقاطُع المسارات التي لا تعرف من أين أتت ولا إلى أين ستذهب. تبادلوا النظرات، حاملة في طيّاتها لغزًا قديمًا، وكأن كل واحد منهم يحمل ذاكرة لا تريد أن تُروى، وجرحًا لم يندمل بعد. لم يُقل أحد كلمة، لكن الصمت بينهم كان أثقل من الكلام، لغة تتحدث بلا صوت، وكأنهم يتقاسمون قصة مكتومة منذ زمن بعيد.

دخلوا السوق معًا، لكنهم لم يكونوا هناك حقًا، بل كانوا أشباحًا تتنقل بين البضائع، تلمس وجوهًا لا تعرفها، تستمع إلى أصواتٍ تتردد كصدى، وتبحث في زوايا الألوان والظلال عن شيء قد فقدوه منذ زمن. كانت الألوان زاهية، لكنها كانت مخفية وراء ضباب من الحنين والشك، والروائح تعبث بالذاكرة كما تفعل الريح العابرة في حقول القمح الجافة.

تحركوا وسط الزحام كأنهم يبحثون عن بوابة سرية، بابٍ غير مرئي، ربما إلى وطنٍ قديم، أو إلى حلمٍ لم يُكتب بعد، لكن كل خطوة كانت تثقلها الأقدام، وكأنهم ينسحبون إلى داخل أنفسهم، بعيدًا عن العيون، بعيدًا عن الزمن. لم يكن هذا مجرد لقاء، بل اجتماع أزلي بين أرواح كانت تنتظر لحظة تجمعها، لحظة تُنسى فيها الضحكات، وتُهمس فيها الأسئلة بلا إجابات، لحظة يصبح فيها الغياب حضورًا، والحضور غيابًا.

في قلب السوق، حيث تنحني الأضواء وتتراقص الظلال، يتطلعون للبضائع، يبحثون عن سلعة وهم لا يعرفون ماذا بعد، ولا أين،
...فقط كانوا هناك
في مكانٍ لا ينتمي إلى الزمن، ولا إلى المكان،
لحظة تُشبه الوميض، ثم تختفي، تاركة خلفها سؤالاً واحدًا:
يا ترى إلى أين سيأخذهم الطريق الآن؟